DAMAGE BOOK

خلدون الكناني

حسان بن ثابت

عنيت بنشره
مكتبة عرفة بدمشق

مطبعة الترقي بدمشق
١٣٦٢ هـ ١٩٤٣ م

حسان بن ثابت

سيرته

هو أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام من بني النجار من الخزرج ، يجمعه والغسانيين ملوك الشام ، والمناذرة ملوك العراق عمرو بن عامر بن ماء السماء جَدُّ القحطانيين اليمانيين الذين نزحوا عن بلادهم ، في جنوب الجزيرة العربية ، واستوطنوا الشرق والشمال[1] .

وُلد في يثرب ، في بيت عريق الأصالة ، شهير الفعال ، عديد المكرمات ، يتوارث فيه الشعر الأبناء والأحفاد عن الآباء والأجداد[2] ؛ وعاش في بلده ، كما يعيش المترفون من أولاد الكبراء أليفَ اللين والعيش الهنيّ والبال الرخيّ ، ينعم بما يسع بيئته أن تقدمه له من الطيبات ، ويلَذّ[3] طلاوة المنادمة في مجالس الأنس علَى لمعة الخمرة في كؤوس الندمان ، وغُنّة[4] النشوة في أفواه القيان الحسان .

وكان يغدو علَى الناس مزهواً بالنسب الرفيع والحسب المجيد والشعر الجيد . فإذا ما لحقته منهم قارصةٌ أو ناله عدوان ، أو استعر الخصام بين قبيله وأبناء أعمامه من الأوس ، وسُلّ السيف واللسان ، ردّ عن حوزته العادين بالهجاء حيناً وبالافتخار فى أغلب الأحيان .

ولما ألِفَت نفسُ حسان اللاهية الزاهية الطموح رَغَد يثرب القليل

---

(١) نزل المناذرة اللخميون العراق ، وآلُ جفنة الغسانيون الشام ، والأوسُ والخزرج يثرب ، وخُزاعةُ مكةَ ، والأزدُ عمان . (٢) كان ابوه ثابت من أشراف بني الخزرج وشعرائها ؛ وكان جده المنذر بن حرام سيداً في قومه وشاعراً وكريماً : حكم بين الأوس والخزرج ، في يوم سُميحة ، فأهدر دماء الخزرج واحتمل دماء الأوس . وكان عبد الرحمن ابن حسان وولده سعيد بن عبد الرحمن شاعرين أيضاً . (٣) لذّ الرجل الشيء : وجده لذيذاً . (٤) : الغنة : الصوت من اللهاة والأنف .

المحـدود ، وملته ، وطلبت التنويع له والمزيد منه — كما هو دأب طلاب اللهو والنعيم — مد شاعرنا عينيه إلى بلاط أقاربه الغسانيين حيث العيشُ الضاحك والبساتين الغناء والخمور المعتقة والألبسة الفاخرة ؛ فشدّ إليها الرحال ، وودّع دور بلده ، حتى حين ، ونزل قصور ملوك الشام .

قصد أول ما قصد — الأمير الغساني جبلةَ بن الأيهم حاملاً إليه شرفاً فاخراً وجاهاً عريضاً ومنادمة حلوة وطبعاً سمحاً ولساناً شاعراً . فأحسن الأمير لقاءه ؛ وأجاد حسان الشكر والثناء ، وحظي عند ممدوحه حتى صار يغدو عليه سنةً ويقيم في أهله أخرى .

ثم تعود حياة الرفاهية في قصر الأمير ، وضعف رونقها في عينيه فطمع في عشرة الملك الغساني نفسه : عمرو بن الحـارث [1] ، وجعل يفد عليه في السنين التي لا يزور فيها جبلة ؛ فأكرم الملك العربي مثواه ، وجعله من خاصته ، وأجداه [2] وأفضل . وقد بلغ من عناية عمرو بن الحارث به أنه كان يخاف عليه — وهو الشاعر الناشئ — من النابغة وعلقمة وأشباههما من الشعراء الفحول ، ويمنعه ، متى حضروا مجلسه ، من الإنشاد ، مخافة أن يفضحوه .

« فاتفق أن قدم حسان علَى مليكه مرة فاعتاص [3] الوصول إليه فقال للحاجب بعد مدة : إن أُذنت لي عليه وإلا هجوتُ اليمن كلها ، ثم انقلبت عنكم ؛ فأذن له فدخل عليه فوجد عنده النابغة ، وهو جالس عن يمينه ، وعلقمة بن عبدة ، وهو جالس عن يساره . فقال له الملك : يا بن الفُريعة [4] ؟

(١) الأغلب أنه ولي الملك عام ٦٠٨ — ٦١٠ م (٢) أجداه وأجدا عليه : أعطاه .
(٣) اعتاص : صعب . (٤) الفريعة بنت خالد بن قيس الخزرجي أم حسان .

قد عرفتَ عيصك[1] ونسبك في غسان ؛ فارجع فإني باعث إليك بصلة سنية ولا أحتاج إلى الشعر ؛ فإني أخاف عليك هذين السبعين : النابغة وعلقمة أن يفضحاك ، وفضيحتك فضيحتي ؛ وأنت والله لا تحسن أن تقول :

رِقاقُ النعال ، طيبٌ حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب[2]

فأبى حسان وقال : لا بدّ منه ؛ فأنشد لاميته التي مطلعها :

أسألتَ رسمَ الدار أم لم تسألِ بين الجوابي فالبُضيع فحومَل[3]

فلما انتهى قال الملك : هذا وأبيك الشعر ، لا ما يعلالاني به منذ اليوم[4].

هذه والله البتارة التي بترت كلَّ المدائح . (الأغاني ج ١٤ ص ٣) .

طاب لحسان المقام في الشام والتنقل في قصور الغساسنة متمتعاً بلهو الحياة ، شاهداً تلك المجالس التي « تصطف فيها القيان بالبرابط[5] ، ويفد إليها المغنون العرب من مكة وغيرها ، ويجلس فيها للشرب ، وقد فرشت بالآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب فيها العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب ، وأوقد فيها العود المندّى في الشتاء ، وجعل فيها الثلج في الصيف ... هذا كله مع حلم عمن جهل ، وضحك وبذل من غير مسألة ، مع حسن وجه وحسن حديث من غير خنا قط ولا عربدة[6] » . وظل شاعرنا يتذوق أفاويق المنى ، وينهل من سلسبيل الرفاهية حتى انقض الفرس على الروم في الشام ، وغلبوهم وهدموا دولتهم (عام ٦١٣ — ٦١٤ م) وقضوا

---

(١) العيص : الأصل . (٢) رقاق النعال كناية عن أنهم ملوك لا يرقعون نعالهم فلا تغلظ . الحجزة : معقد الإزار . ويوم السباسب : يوم الشعانين عند النصارى وهو الأحد الذي يسبق الفصح ، دخل فيه السيد المسيح أورشليم فحياه الصبيان بأغصان النخل والزيتون . والبيت من قصيدة للنابغة في مدح عمرو بن الحارث . (٣) الجوابي والبضيع وحومْل : مواضع في حوران . (٤) علاه : سلاه . منذ اليوم : في هذا اليوم . (٥) البربط : آلة موسيقية تشبه العود ؛ جمعها : برابط . (٦) راجع الأغاني ج ١٦ ص ١٥ .

عَلَى ملك آل جفنة ؛ ففرّ بعض أمرائهم إلى بلاد الروم ، والتجأ الآخرون ، وعَلَى رأسهم جبلة بن الأيهم آخر ملوكهم ، إلى داخل الصحراء [1] ؛ وعاد حسان إلى بلده وهو يمسح عبرة ويكتم حسرة ، وقد أفاد من مقامه عند الملوك حكمة وعبرة :

من يغرّ الدهرُ ؟ أو يأمنه من قبيل بعد عمرو وحجر ؟[2]

وكانت الذكرى تهيجه ، من بعد ذلك ، بين الحين والحين ، فيذكر عهدهم ويحيي ديارهم :

ديارَ ملوكٍ قد أراهم بغبطة زمان عمود الملك لم يتهدم[3]

وما كان ليشغل عن الحنين اليهم وبكاء مجدهم الضائع وعزهم المحطم لولا ان كانت يثرب ، في ذلك الزمن ، تتهيأ لانقلاب اجتماعي خطير ، ويتألق فيها سراج من عند الله منير . كان الرسول محمد ﷺ قد هاجر إليها ونشر فيها نور الدين الجديد بعد أن أراد القرشيون أن يطفئوه في مكة ، وأسلمت الأوس والخزرج ، فكان حسان في جملة المسلمين .

ألفى حسان في دين الإسلام صواباً وهدى وخيراً كثيراً . ألفى فيه قوة حية زاخرة تحبب إليه العيش بعد تلك الضربة القاصمة التي نزلت بأحبائه الغسانيين ، وانكشف له عن وجهٍ للحياة ناصحٍ سامٍ حكيم ؛ فأحبه ونافح عنه وعن نبيه منافحة الصادق المخلص الأمين .

وزاده تعصباً للإسلام وتأييداً له أن هذا الدين الحنيف الرشيد الهادي إلى الخير وإلى الصراط المستقيم أزهر وذاع وانتشر — أول ما أزهر

---

(١) امراء غسان لنولدكه ، تعريب جوزي وزريق ص ٤٥ . (٢) عمرو بن الحارث وحجر ابن النعمان أخي عمرو بن الحارث . والبيت في الديوان ص ٢٠٥ . (٣) الديوان ص ٣٨٨ .

وذاع وانتشر — في قلوب الأنصار من الأوس والخزرج وعقولهم ؛ وأنه عزّ بسيوفهم وألسنتهم ، وبان للناس فضله وهداه بدعواهم ونصرتهم . فكان كلما كسب معركة ، أو أضاف محمدة ، وازداد قوة ومناعة ، ازداد حسان وقومه به اعتزازاً ، وبنصرته افتخاراً ، وفرحوا بما آتاهم الله من فضله وفضلهم به عَلَى القرشيين العدنانيين منافسيهم الأقدمين .

وهكذا أمد الإسلام شاعرنا الفخور المتباهي بمعين من الفخر جديد ، ونفح من شعره روحاً حياً وعزماً قوياً ، وضمن له حياة خصيبة طويلة . فلا غرو إذا وقف شعره ، في هذا العهد عَلَى امتداح الإسلام والدعوة له ، وتمجيد وقائع المسلمين وبطولتهم الشادهة في الدفاع عن بيضة الدين[1] ، ورثاء شهدائهم[2] ، وتحريض القبائل الكافرة بعضها عَلَى بعض بأمر الرسول[3] وذكر معتقدات المؤمنين[4] . ومع أن حسان كان يؤثر في هذا الدور الافتخار الطويل عَلَى الهجاء الشديد في الردّ عَلَى الذين كانوا يهجون الإسلام وأنصارَه من اليثربيين ، ولا يذكر في الأبيات القليلة التي كان يقولها في هجائهم إلا المعنى المهذّب واللفظ المفيف ، فلقد كان للمهاجرون المسلمون يتأذون منه في سرائر نفوسهم ؛ وينفرون منه حين يسمعون ما قاله في أقاربهم المكيين .

وكأنما وجدت حينذاك عوامل أخرى غير التنافس القديم بين مكة ويثرب ، وغير هجائه للقرشيين زادت هذا النفور وقوته ، وجعلت أبا الوليد يتسرع بتصديق حديث الإفك واتهام صفوان بن المعطّل القرشي

(١) الشادهة : المدهشة . بيضة الدين : ساحته وحماه . والقصائد المقولة في هذا الغرض ، الصفحات التالية من الديوان : ١١ ، ١٤٠ ، ١٨٧ ، ٢٢٣ ، ٣٣٢ .

(٢) الديوان ص : ٣٨ و ٥٣ و ١٧٨ و ١٨٢ و ٣٢٩ و ٣٣٦ . (٣) الديوان ص : ٧٤ و ١٠٦ و ١٦٢ . (٤) الديوان ص : ٣١٩ .

بعائشة أم المؤمنين ، ويقول ، حين كثر عدد المهاجرين إلى المدينة من المكيين قصيدته التي مطلعها :

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا وابن الفُريعة أمسى بيضةَ البلد[1]

« فلما قال هذا الشعر اعترضه صفوان بن المعطل فضربه بالسيف ؛ فأعلموا النبيّ ﷺ فقال لحسان : أحسن في الذي أصابك ! فقال : هي لك[2] . فأعطاه النبيّ ﷺ عوضاً قصرَ بيرحاء[3] ، وسيرين أختَ مارية القبطية زوج الرسول ، فهي أم عبد الرحمن بن حسان . » (التنبيه علَى أمالي القالي للبكري ص ٣٦) .

لا ريب أن النبي الكريم ﷺ استاء من أن حسان نفس عليه إسلامَ قومه وأفصح بالفاحشة في حديث الإفك . لكنه غفر له زلتيه لتوبته واعتذاره إلى عائشة بقصيدة مرضية[4] ، وانصرافه عن التعرض للمهاجرين ، وحسن بلائه في الرد علَى الهاجين المفحشين من أعداء الدين .

وكان ذلك بعد غزوة الخندق ، حين قويت شوكة الإسلام ولم يعد يسع المكيين مهاجمةُ المسلمين ؛ فاستعاضوا عن حربهم بالسنان بحرب اللسان ، وسبوهم وشتموهم وأفحشوا لهم بالقول وسلقوهم بألسنة حداد .

« روي أن رسول الله ﷺ ، لما انهزم المشركون يومَ الأحزاب[5] وانتهى إليه شعر أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، شقّ عليه وقال : إن المشركين لن يغزوكم بعد اليوم ؛ ولكنكم تغزونهم وتسمعون منهم أذى ، ويهجونكم ؛ فمن يحمي أعراض المسلمين ؟ فقام عبد الله بن روَاحة

---

(١) الجلباب : الثوب الواسع . وكان المكيون يعرفون في يثرب بجلابيبهم . وبيضة البلد : الخامل الذكر .
(٢) اي صفحت إكراماً لك . (٣) قصر في يثرب . (٤) الديوان ص : ٣٢٤
(٥) غزوة الخندق .

فقال : أنا ؛ فقال : إنك لحسن الشعر ؛ ثم قام كعب بن مالك فقال : أنا ؛ فقال : وإنك لحسن الشعر ؛ ثم قام حسان فقال : أنا ؛ فقال : نعم اهجهم أنت ! فإنه سيعينك عليهم روح القدُس . وأرى حسانُ الرسولَ لساناً طالما افتخر به ، فضرب به أرنبته [1] ثم قال : والذي بعثك بالحق ؛ ما يسرني به مقول [2] بين بُصرى وصنعاء ؛ ولو أن لساناً فري الشعر لفراه [3] . فسأله الرسول : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ وكيف تهجو أبا سفيان وهو ابن عمي ؟ فقال : والله لأسُلَّنَّك منهم كما تُسلّ الشعرةُ من العجين . فقال له : ائتِ أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك ! فكان أبو بكر يقفه على أنسابهم ويقول له : كفّ عن فلانة وفلانة واذكر فلانة وفلانة ! فقال حسان حينئذ قصيدته التي منها :

وإنّ سنام المجد من آل هاشمٍ   بنو بيتِ مخزومٍ ، ووالدُك العبدُ
وأنت زنيمٌ نيط في آل هاشم   كما نيط خلفَ الراكبِ القدَحُ الفردُ [4]

فلما بلغ هذا الشعرُ أبا سفيان قال : هذا كلام لم يغب عنه ابن أبي قحافة [5] (الأغاني ج ٤ ص ٧ و ج ١٥ ص ٢٨ وزهر الآداب ج ١ ص ٢٥) .

أضحى حسان ، من بعد ذلك ، لسان الإسلام الشاعر ، يدفع عنه ، ويشهر مناقبه ، ويفتخر بالانتصار له والكفاح عنه ، ويرد على من كان يهجوه من المشركين بفريات مثل فِرياتهم ، ويستخدم — كما كانوا يفعلون — القول المقذع والمنطق الهجر .

ولم ينقطع هذا التصاول الشعري المنهك ؛ بينه وبين شعراء الكفار ، إلا بانتصار الدين الحنيف ودخول خيالة المسلمين مكة غالبين . عندئذٍ عاد أبو عبد الرحمن إلى سيرته الأولى يمدح الرسول والمسلمين ويرثي موتاهم ، ويهجو الفلول الباقية من المشركين ؛ ويفتخر بأنه كان هو وقومه من السابقين إلى

---

[١] الأرنبة : طرف الأنف . [٢] المقول : اللسان . [٣] فراه : قطعه .
[٤] الديوان ص ١٦٠ والزنيم : المدعي المستلحق بقوم ليس منهم . وناط الرجل الشيء : علقه ؛ والراكب يعلق قدحه في آخر رحله . [٥] أبو بكر الصديق .

خدمة الإسلام . وكان النبي الكريم ، إذا قدمت عليه وفود العرب بشعرائها وخطبائها وتكلمت بين يديه ، يستدعي بعض خطباء المسلمين للرد علَى خطبائهم ويستدعي حسان بن ثابت للرد على شعرائهم . ومن أجمل ردود حسان وأبلغها قصيدته التي قالها مجيباً الزبرقان بن بدر شاعر وفد تميم والتي مطلعها :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبعُ [1]

ولقد كانت هذه القصيدة من جملة الدواعي لإسلام بني تميم .

لبث حسان يناضل أعداء الدين حتى لم يبق منهم ، في جزيرة العرب ، صائح . حينئذ شعر بانتهاء العمل الذى ندب له ، وأدركه الوهن بعد شدة الخوض في يم الحياة ، وعرف أن شهرته الشعرية الساطعة قد آذنت بالرحيل ، وخصوصاً حين انتقل النبي العظيم إلى الرفيق الأعلى وبات هم الخلفاء الراشدين من بعده ، جمع كلمة المسلمين وإزالة المنافسة بين الأنصار والمهاجرين ، وطمس كل ما يبعث الإحن القديمة التي غطاها الإسلام .

« مرّ عمر بحسان يوماً وهو ينشد الشعر في مسجد الرسول عليه السلام فقال : أرُغاء كرغاء البعير [2] ؟ فقال حسان : دعنا عنك يا عمر ! فوالله لتعلم أني كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك . فقال عمر : صدقتَ ، وانطلق » .

ودعا إلى أفول نجم حسان أيضاً نزول الشعر عن المكانة السامية التي كانت له في ذلك العصر ، وتبدل نظرة الناس إليه [3] ، وانصرافهم عنه إلى التفقه بالدين والاهتمام بالفتوح الاسلامية الجبارة المحيرة للفكر ، في ذلك الحين .

---

[١] الذوائب : السادة . وفهر بن غالب بن النضر بن كنانة أصل قريش . وإخوتهم في الإسلام : الانصار . [٢] رُغاء البعير : صوته اذا ضج . [٣] كان حسان وكعب ابن مالك يعارضان القرشيين الكفار بمثل أقوالهم ، بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب . وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر . فكان في ذلك الزمان ، أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة . فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة . الأغاني ج ٤ ص ٤ .

وبلغ من زهد القوم بشعر حسان أنه كان ينشدهم فلا يسمعون ، ويبذل الجهد ، على هرمه وعجزه وذهاب بصره ، في تملك أذهانهم فلا يصغون . « ولقد مر الزبير بن العوام بمجلس من أصحاب رسول الله ، وحسان ينشدهم من شعره وهم غير نشاط لما يسمعونه منه فسألة الزبير قائلاً : مالي أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن الفريعة ؟ فلقد كان يعرض لرسول الله فيحسن استماعه ، ويجزل عليه ولا يشتغل عنه بشيء . » (الأغاني ج ٤ ص ٧) .

وزاد بعض المتدينين فأخذ يحاسبه على معانيه الحساب العسر . « قال ابن عمر حين أنشد قول حسان :

بأبي لي السيفُ واللسان وقو مٌ لم يضاموا كلبدة الأسد[1]

أفلا قال: يأبى لي الله؟ ولاحول ولاقوة إلا بالله .» (ذيل الأمالي ص ١١٢) .

وكأنما اغتنم خصومه القدماء فرصة انصراف الناس عن شعره ، فأنكروا قول رسول الله له : اهجهم ومعك روح القدس . فكان « يذهب إلى أبي هريرة ويقول له : أنشدك الله[2] ! أسمعت رسول الله يقول : أجب عني ! ثم قال : اللهم أيده بروح القدس ! ؟ فيقول أبو هريرة : اللهم نعم ! » . (الأغاني ج ٤ ص ٣) .

عاش حسان الضرير العاجز سنيه الأخيرة عيشة اليائسين المكسورين . فلما قتل عثمان ازدادت نقمته على الناس ورثاه مرات وهدّدهم وتوعدهم « ولما احتدم الخلاف بين أنصار عليّ وأنصار معاوية كان من العثمانية الذين يقدمون بني أمية على بني هاشم ويقولون : الشام خير من المدينة » (الأغاني ج ١٥ ص ٢٩) وكان أحب الأمور إليه ، في آخر عمره ، بعد أن منعته حكمة الخلفاء الراشدين من ذكر أعماله وأهاجيه في الإسلام ، ومله الحياة وأفنى جسمه السقام ، أن

---

[١] يضاموا : يظلموا . لبدة الأسد بكسر اللام وضمها : الشعر المجتمع حول رقبته .

[٢] أنشدك : أناشدك واستحلفك .

يتذكر أيام العز والشباب في الجاهلية وليالي الشرب والمرح في قصور الغساسنة. وكان إذا عاودته تلك الذكريات العذاب ، يحن إليها ويهتز لذكراها ويبكي عليها . وقد عرف الناس منه ذلك ، ولا سيما ابنه عبد الرحمن ، فكان اذا حضر ابوه مجلس لهو «وشق وجوده على فتيان قريش ، طلب عبد الرحمن من القينة أن تغني :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم   قبرِ ابن مارية الكريم المفضل

فيبكي حسان بكاء شديداً ثم ينصرف قائلاً : لعمرى لقد كرهتم مجلسي سائرَ اليوم [1] .» (الأغاني ج ١٦ ص ١٦)

مات حسان رحمه الله في خلافة معاوية .

عمره

أجمع المؤرخون العرب على أن حسان عاش مائة وعشرين سنة ؛ ستون منها في الجاهلية وستون في الإسلام ، وذكر بعضهم أنه ولد قبل مولد النبيّ ببضع سنين . وروى آخرون أنه مات سنة (٥٠) ه في خلافة معاوية بن أبي سفيان .

غير أن المستشرق الشهير نولدكه لا يعتقد أنه عاش هذا العمر الطويل ؛ ويعلل وهم قدماء المؤرخين بأنهم التبس عليهم أعمار ملوك غسان وتسلسلهم ، ويرجح أن يكون حسان اتصل ببلاط بني جفنة حوالي سنة ٦١٠ م .

يقول نولدكه : مات النعمان بن المنذر الغساني سنة (٥٨٣) م ثم تلاه الملك الحارث الأصغر ثم الحارث الأعرج ابنه أبو حجر النعمانُ ابنه ثم أخوه عمرو بنْ الحارث الذي اتصل به حسان . وهؤلاء كلهم ماتوا

[١] سائر اليوم : باقي اليوم .

بين ٥٨٣ – ٦١٤ م · فمن المعقول أن يكون عمرو بن الحارث قد ولي الحكم سنة (٦٠٨ – ٦١٠) م واتصل به حسان في تلك المدة · وإذا عرفنا أن حسان مات سنة (٦٦٠) م وجدنا أنه مات بعد اتصاله بالغساسنة بخمسين سنة · فلو اتصل بهم وعمره ثلاثون لمات ابن ثمانين · ويختم المستشرق كلامه بقوله : إن في قصائده التي رثى بها عثمان لقوةً لا تكون في الشيخ الفاني الذي جاوز المائة[1] · »

أقوال النقدة في شعره

نَقَدة العرب في شعر حسان فريقان : فريق يمدحه ويرفع من ذكره وفريق يذمه ويَحطّ من قدره · أما المادحون فيذكرون أن النابغة « قدم سوق عكاظ فتقدم قيس بن الخطيم الأوسي وأنشده قصيدته التي مطلعها : (أتعرف رسماً كاطّراد المذاهب) حتى فرغ منها فقال له النابغة : أنت أشعر الناس يابن أخي · قال حسان : فدخلني منه[2] وإني ، في ذلك ، لأجد القوة في نفسي عليهم · ثم تقدمت فجلست بين يديه فقال : أنشد ! فوالله إنك لشاعر قبل أن تتكلم · قال حسان : وكان يعرفني قبل ذلك · » (الأغاني ج ٣ ص ١٦٢) · ويذكرون أيضاً قول الرسول عليه السلام : أمرتُ عبد الله بن رَواحة فقال وأحسن ، وأمرتُ كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرتُ حسان بن ثابت فشفى واشتفى (الأغاني ج ٤ ص ٦) · وقوله عليه السلام في موضع آخر : إن الله ليؤيده بروح القدس ما نافح عن نبيه · (زهر الآداب ج ١ ص ٢٥) ؛ ويروون أن الأعشى شهد له بالشاعرية وأن الحطيئة قال حين احتُضر : أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حيث يقول :

---

[١] يراجع للتوسع كتاب : امراء الغساسنة لتيودور نولدكه · تعريب جوزي وزريق ص ٦٥ · بيروت ١٩٣٣

[٢] أي خفت ·

يغشّون حتى ما تهرّ كلابهم   لا يَسألون عن السواد المقبل[١]

ويوردون كذلك قول عمرو بن العلاء الذي يرى حسان أشعر أهل الحضر ؛ وقولَ أبي عبيدة : فضل حسان الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام ؛ وقوله أيضاً : اجتمعت العرب على أن حسان أشعر أهل المدر ؛ وقولَ الأصمعي : حسان أحد فحول الشعراء ؛ وموافقةَ أبي الفرج الأصبهاني له في هذا الرأي .

وأما الذامون فيدّعون أنه قيل له في الجاهلية ، حين وفد علَى النعمان ابن المنذر ليسأله إطلاق بعض الأسرى من قبيلته « فإن أنت خلوتَ به وأعجبته فأنت مصيب منه خيراً ؛ وإن رأيت النابغة فاظعن ؛ فإنه لا شيء لك » (العقد الفريد ج ١ ص ١٧٥) ؛ وأن الملك عمرو بن الحارث الغساني كان يخاف عليه من النابغة وعلقمة . وينسبون إليه أشعاراً ضعيفة ليحطوا من قيمة شعره[٢] ؛ ويزعمون أنه أنشد النابغة في عكاظ قوله :

لنا الجفنات الغرّ يلمعن في الضحى   وأسيافنا يقطرن من نجدة دما[٣]
ولدنا بني العنقاء وابنيْ محرّق   فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة : ولكنك أقللت جفانك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدتَ ولم تفخر بمن ولدك ؛ وقالت الخنساء : تقول (يلمعن بالضحى) وكان حقه أن يكون بالدجى ، ليكون أكثر طُرّاقاً ؛ وقلت (الغرّ) وكان حقه (البيض) و (يقطرن) وكان الأجمل (يسلن) أو (يجرين)[٤] .

---

[١] هرّ الكلبُ . نبح . والسواد : الشبح ؛ فاذا ألفت الكلاب الناس كفت عن أن تهرهم .
[٢] قال الأصمعي : تنسب لحسان أشياء لا تصح عنه . [٣] الجفنة : القصعة الكبيرة .
[٤] انتبه بعض النقاد إلى فساد هذا النقد المروي في أكثر كتب الأدب . قال قدامة ابن جعفر في كتابه « نقد الشعر » : على أن من أنعم النظر علم أن هذا الرد على حسان :=

ومما يرويه هؤلاء الناقدون الخصوم قول أبي حاتم : تأتي لحسان أشعار لينة ، وقول الأصمعي مرة : الشعر نكد يقوى في الشر ويسهل ؛ فإذا دخل في الخير ضعف ولان . هذا حسان فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره . وكأنهم أرادوا دعم كل هذه الأقوال فذكروا عن حسان نفسه أنه قيل له : لانَ شعرك يا أبا الحسام فقال : إن الإسلام ليحجز عن الكذب وإن الشعر ليزينه الكذب .

فالنقاد إذن في شعر حسان فئتان متباعدتان : فئة تتهمه بالتقصير ، وفئة تنظر إليه نظرتها إلى شاعر فحل كبير . ونحن لا نستطيع أن ننحاز لفريق دون فريق أو نفضل رأياً على رأي ، أو نعرف للشاعر قدره إلا بعد أن ندرس شعره .

= من النابغة كان أو من غيره ، خطأ ؛ وأن حساناً مصيب . فمن ذلك أن حساناً لم يرد بقوله (الغرّ) أن يجعل الجفان بيضاً لكن (المشهورات) كما يقال : يوم أغرّ ويد غرّ أو الخ ...

وروى صاحب الأغاني (ج ٨ ص ١٨٦) . أن أحد الأنصار كان يأتي الفرزدق ويسأله هل يحسن أن يقول (لنا الجفنات الغرّ ....) ويذكر الأبيات مفاخراً . وقال الأستاذ طه أحمد ابراهيم في كتابه (تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٩) : أما أن يُسأل حسان عن بيت القصيد في كلامه فيجب بأنه (لنا الجفنات الغرّ ...) فينهال النابغة أو تنهال الخنساء طعناً على البيت وتجريحاً له على النحو الوارد في بعض الكتب فذلك ما لا يستطيع حث جاد أن يؤمن به .

دراسة شعر حسان

ألف حسان بلهنية العيش ولذة النعيم منذ حداثته فأحب الحياة حباً جماً .
أحب منها ناحيتها الرخوة اللاهية ، وأشبع النفس من مباهجها وملذاتها ،
فصبا وغازل القيان ، وجدَّ وأشعر قلبه فتنة الغرام ، وشرب الراح مع
الندمان ، بين الآس والياسمين والريحان . وتغنى بهذه الحياة الباسمة ،
في شعره فتغزل ونعت الخمرة ووصف مجالس اللهو والشراب .

وعنت له ، في أسفاره ، المناظر الشعرية المختلفة : مناظر اطلال
الأحبة الهامدة ، والسماء الصاخبة الباكية ، والناقة المسرعة تقطع به المهامة ؛
فوصفها الوصف الدقيق المفصل .

وكان زهوه الفطري وتيهه العظيم بمآثر اجداده يدفعانه إلى الافتخار
دفعاً ، في كل ملابسة ، وكل حين ؛ كما كانت حروب قومه الخزرج مع
الأوس ، وإخوانه المسلمين مع المشركين تضطره إلى ضروب الهجاء .

ولقد أحب حسان الرسول وملوك غسان وأمراءها وكثيراً من أفاضل الناس
فمدحهم؛ وشهد وفاة بعضهم ومصرع بعضهم الآخر بأم عينه فبكاهم ما أسعده
الدمع ، ورثاهم ما انقاد له الرثاء .

لذا كانت أشهر الأغراض التي قال فيها الشعر : الغزل ونعت الخمر ووصف
مجالس اللهو والغناء ، والمشاهد الشعرية المنوعة، والفخر والهجاء والمدح والرثاء .

الغزل

احب حسان المرأة لأنوثتها ولأنها ، في المجالس اللاهية ، كالشمس في
الأيام الجميلة الصاحية ، لا بدّ منها . فتغزّل بها في مطالع قصائده وأوساطها
غزلاً فيه صبابة وفيه رقة

أنضيهَ ! ما بيني وبينكمُ ... صرمٌ ، وما أحدثتُ من هجر [1]
جودي ! فإن الجود مكرُمة ... وأجزي الحسام ببعض مايفري ! [2]
وحلفتُ : لا أنساكمُ أبداً ... ما ردّ طرفَ العين ذو شُفر [3]
وحلفت لا أنسى حديثك ما ... ذكر الغويّ لذاذةَ الخمر [4]
ولأنتِ أحسنُ — إذ برزتِ لنا ... يومَ الخروج بساحةِ القصر
من دُرةٍ أغلى الملوكُ بها ... مما تربَ حائرُ البحر [5]

وفيه أحياناً وصف حسيّ واستجابة للجسد :

همها العطرُ والفراشُ ويعلو ... ها لجين ولؤلؤ منظوم [6]
لو يدِبُّ الحوْلي من ولد الذرْ ... رِ عليها لأندبته الكلوم [7]
لم تفقها شمس النهار بشيء ... غير أن الشباب ليس يدوم [8]

وكأن شعثاء [9] هي التي ملكت عليه أمره ، وأشعلت نار الصبابة في قلبه ؛ فأكثر من ذكرها ، واتخذ في مخاطبتها لهجة الصدق والإخلاص والشوق :

إني ، وربِّ المخيساتِ وما ... يقطعن من كل سربخٍ جدَد [10]
ما حلت عن خير ما عهدتِ ولا ... أحببت حبي إياك من أحد [11]

لكنها لم تستطع أن تملأ وحدَها قلبه فأحب غيرها أيضاً حباً جديداً وخاطبها خطاب الصدق والوجد والبقاء على العهد:

---

[١] الصرم : قطع الود . [٢] يفري : يقطع ؛ وهنا : يعمل . والحسام لسانه . يقول : كافئني لساني ببعض ما يقول في مدحك . [٣] الشفر : منبت شعر الجفن . والمعنى : ما أطبق الجفن العين . [٤] الغويّ : الضال المنقاد للهوى . [٥] أغلى الرجل الشيء : جعله غالياً . وترب الرجل ابنه : رباه وتعهده . والحائر : الممتلئ . والحائر هاهنا فاعل ترب . والأبيات في الديوان ص ١٧٥ . [٦] اللجين : الفضة . [٧] الحوْلي : الذي أتى عليه حوْل ؛ والذرّ : النمل ؛ والكلوم : الجراح ؛ وأندب الجرح الجسم : أثر فيه . [٨] الديوان ص ١٧٥ . [٩] قيل إنها يهودية ؛ وقيل : بل من خزاعة ؛ وقيل إنه تزوجها وولدت له . [١٠] المخيسات : الإبل المذللة ، والسرْبخ : الأرض المضلة ، والجدد : الأرض الغليظة . [١١] الديوان ص ١١١ .

فإن تك ليلى قد نأتك ديارُها وضنت بحاجات الفؤاد المتيمِ (١)
فما حبلها بالرث عندي ولا الذي بغيره نأي ، وإن لم تكلم (٢)
ولا ضقتُ ذرعاً بالهوى إذ ضمنته ولا كُظَّ صدري بالحديث المكتمِ (٣)

ولا يُستغرب هذا من حسان؛ فالفتى الذي يألف عشرة اللاهيات المغريات ، والمغنيات المنتشيات لا يقيم على حب واحدة منهن حيناً حتى ينقلب عنها إلى غيرها لينعم بفرحة التجديد ، ولذة التبديل :

رُبَّ لهوٍ شهدته ، أمَّ عمرو! بين بيضٍ نواعمٍ في الرياط (٤)
معْ ندامَى بيضِ الوجوه كرامٍ نُبهوا بعد خفقةِ الأشراطِ (٥)
لكميتٍ كأنهـا دمُ جوفٍ عتقت من سـلافه الأنباط (٦)
فاحتواها فتى يُهين لهـا المالَ ونادمتُ صالحَ بن عُلاط (٧)
ظل حولي قيانهُ عازفاتٍ مثلَ أدمٍ كوانسٍ وعواطِ (٨)
يطفن بالكأس بين شَرْبٍ كرام مهدوا حرَّ صالحِ الأنماط (٩)
ساعـةً ثم قال : هن بدادٌ بينكم ، غير مُمة الاختلاط (١٠)

فإذا لم يكن حسان صادقاً في حبه لشعثاء فلقد كان صادقاً في حبه لكل

---

[١] نأتك : بعدت عنك ، ضنت : بخلت ، والمتيم : الذي برَّح به الهوى وأضناه .
[٢] الحبل : الصلة المجازية : والرثّ : البالي ، والنأي : البعد ، وأصل تكلم : تتكلم .
[٣] ضاق بالأمر ذرعاً : لم يقدر عليه ، وكظ الصدر بالحديث : امتلأ حتى لا يطيق الكتمان . والأبيات في الديوان ص ٣٩٤ . [٤] الرياطة جمع ريطة وهي الثوب الأبيض الرقيق . [٥] الأشراط : نجوم في السماء ، وخفقتها : غيابها . وربما كان معنى الأشراط هنا : الارذال وأن نداماه الكرام نبهوا بعد غيابهم . [٦] الكميت الخمرة الضاربة حمرتها الى سواد ، والسلافة : الخمر ، والأنباط : قوم سكنوا الشام . [٧] صالح بن علاط من رؤساء سليم . [٨] الأدم : الظباء ، والكوانس : المستترة تحت الأغصان، والعواطي : الرافعات أيديهن لتناول الأغصان . [٩] الشرب : الشاربون ، والأنماط : بسط لها خمل رقيق . [١٠] بداد : موزعات مقسمات ، والاختلاط : فساد العقل من السكر ، يقول: وزع ابن علاط قيانه على نداماه ولم يختلط عقله . والأبيات في الديوان ص ٢٣٤—٢٣٦ .

النساء ، إذ هن في عينيه كالخمرة ، متعة من متع اللهو ، وباعث من بواعث السرور ، بل كثيراً ما كان يفضل الخمرة عليهن ، فلا يكاد يصل ، في نعت محبوبته ، إلى وصف الريق وتشبيهه بالرحيق[١] حتى يترك التغزل إلى الخمرة فيمدحها ويطيل :

فدع هذا ! ولكن من لطيفٍ يؤرقني إذا ذهب العشاء[٢]
لشعثاء التي قد تيمته فليس لقلبه منها شفاء
كأن سبيئة من بيت رأس يكون مزاجها عسلٌ وماء[٣]
علَى أنيابها أو طعمَ غضّ من التفاح ، هصره الجناء[٤]
إذا ما الأشربات ذكرن يوماً فهن لطيب الراح الفداء[٥]
نوليها الملامة إن ألمنا إذا ما كان مغث أو لحاء[٦]
ونشربها فتتركنا ملوكاً وأسداً ، ما ينهنها اللقاء[٧]

وما كانت شعثاء على دلها وجمالها لتلهيه عن الكأس وإدامة السكر :

تقول شعثاء لو تُفيق من الـ كأس لأُلفيتَ مُثريَ العدد[٨]
أهوى حديث الندمان في فلق الـ صبح وصوت المسامر الغرد[٩]

ولقد بلغ حظها منه ، في النهاية ، مبلغاً لا تحسدها عليه النساء :

فأنى تلاقيها إذا حلّ أهلها بوادٍ يمانٍ من غفارٍ وأسلما[١٠]
سأُهدي لها في كل عامٍ قصيدةً وأقعدُ مكفياً بيثرب مكرما[١١]

---

(١) الرحيق : الخمر . (٢) يؤرقني : يُذهب عني النوم . (٣) السبيئة : الخمر ، وبيت رأس : بلد . (٤) هصره : كسره وعصره ، والجناء : جني الفواكه وقطفها . (٥) الراح الخمر . (٦) ألام الرجل: وقع في اللوم ، والمغث: العر ، واللحاء : السباب (٧) نهنهه اللقاء : زجره ورده . والأبيات في الديوان ص ٣ — ٤ . (٨) ألفى : وجد (٩) النديم : الرفيق المسامر في الشرب ، والمسامر : المحدث المسلي في الليل ، والغرد : المغني والأبيات في الديوان ص ١١٢ . (١٠) غفار بن مليل بن كنانة : رهط أبي ذر الغفاري. وأسلم بن أفصى بن حارثة من خزاعة . (١١) المكفي : من عنده الكفاية من حاجاته . والبيتان في الديوان ص ٣٦٩ .

ومهما يكن من أمر ؛ فلقد كان تعلق حسان بالنساء شديداً شدة تعلقه بحياة الخفض والنعيم . فلا غرابة إذن أن نسمع في شعره ، عند تذكره لصويحباته ، في الجاهلية والإسلام[1] رنة الحنين الصادق إلى العهود الماضية والآفاق البعيدة ، ولا غرابة أيضاً أن يفعم غزله بذكر الأماكن الكثيرة التي هي كل ما بقي لعينيه من تلك الأيام السعيدة والصور اللطاف :

قد تعفى بعدنا عاذبُ ... ما به بادٍ ولا قاربُ[2]
غيرته الريح تسفي به ... وهزيمٌ رعده واصبُ[3]
ولقد كانت تكون به ... طفلةٌ ممكورةٌ كاعبُ[4]
وكلت قلبي بذكرتها ... فالهوى لي فادح غالبُ[5]
ليس لي منها مؤاس ولا ... بدٌّ مما يجلبُ الجالبُ[6]
وكأني حين أذكرها ... من حميا قهوةٍ شاربُ[7]
أكعهدي هضبُ ذي نقر ... فلوى الأعرافِ فالضاربُ[8]
فلوى الخربةِ ، إذ أهلنا ... كلٌّ ممسيٍّ ، سامرٌ لاعب
لم تكن سعدى لتنصفني ... قلما يُنصفني الصاحب
فابكِ ما شئت على ما انقضى ... كلُّ وصل منقضٍ ذاهبُ
لو يردّ الدمع شيئاً لقد ... ردّ شيئاً دمعك الساكب[9]

(١) الجار والمجرور متعلق بتذكره . (٢) تعفى المكان : عفا ودرس . وعاذب : اسم موضع . والبادي : الذاهب للبادية . والقارب : القادم . (٣) سفت الريح التراب حملته وذرته . والهزيم : المطر المنهمر . والواصب : الدائم . (٤) الطفلة : الناعمة . والممكورة : المدمجة الخلق ، المعجبة القوام . والكاعب : الفتاة في أول عهد بالشباب . (٥) الذكرة : الذكرى . والفادح : المرهق ثقله . (٦) المؤاسي : المسلي والمعزي . والجالب : هنا القدر ولا بد مما يأتي به القدر . (٧) الحميا : سورة الشراب ودبيبه السار في العروق . والقهوة : الخمر . (٨) ذو نقر ولوى الأعراف والضارب ولوى الخربة : مواضع . (٩) الأبيات في الديوان ص ٣٤ — ٣٦ وغزل حسان في الصفحات : ٢ — ٣ ، ١٨ — ٢١ ، ٣٥ — ٣٦ ، ١١٠ — ١١٢ ، ١٧٥ — ١٧٧ ، ١٩٨ — ١٩٩ ، ٢٣٤ — ٣٥ ، ٢٧٤ ، ٢٨٤ ، ٣١٣ ، ٣٦٢ ، ٣٦٩ ، ٣٧٦ — ٣٧٧ ، ٣٨٠ — ٣٨١ ، ٣٨٨ — ٣٨٩ ، ٣٩٤ ، ٤١٤ ، ٤١٥ .

نعت الخمر

افتتن حسان بالخمرة لأنها من متطلبات حياة اللهو والمرح ، فوصفها دقيق الوصف ، ومجدها شيق التمجيد ، وافتنّ في وصف أثرها في الأجساد وفي النفوس :

كأن فاها ثَغَبٌ باردٌ ... في رَصفٍ تحت ظلال الغمام[(1)]
شُجت بصهباء لها سورة ... من بيت رأسٍ عُتقت في الخيام[(2)]
عتقها الحانوت دهراً فقد ... مرّ عليها فَرَطُ عام فعام[(3)]
نشربها صِرْفاً وممزوجة ... ثم نغني في بيوت الرُّخام[(4)]
تدب في الجسم دبيباً كما ... دبّ دبىً وسطَ رُقاق هيام[(5)]
كأساً إذا ما الشيخ والى بها ... خمساً تردّى برداء الغلام
من خمر بيسان تخيرتُها ... ترياقةً تُسرع فتر العظام[(6)]
يسعى بها أحمرُ ذو بُرنسٍ ... محلق الذِفرى شديد الحزام[(7)]
أروع للدعوة مستعجل ... لم يثنه الشان ، خفيفُ القيام[(8)]

وأحبها حباً مفرطاً لأنها تخلق شاربها خلقاً جديداً ، وتصير الخامل البخيل رجلاً حياً كريماً (! ؟)

---

(١) الثغب : الغدير البارد بين الظلال ، لاتصيبه الشمس . والرَصف : الحجارة المتراصفة . (٢) شجت : مزجت . والصهباء : الخمر . والسورة : الحدّة والفوران . وبيت رأس : موضع. (٣) الحانوت : دكان بائع الخمر . والفرط : مجاوزة الحد . (٤) الصرف : التي لم تمزج بالماء . (٥) الدّبى : الجراد . والرُّقاق : الأرض المنبسطة اللينة التراب . والهيام : ما لايتماسك من الرمل . (٦) بيسان موضع في فلسطين . والترياقة : الخمر . والترياق في الأصل : الدواء ضد السموم . وفترت العظامُ فتراً : لانت مفاصلها . (٧) أحمر : غلام غير عربي . والمحلق : الذي في أذنه حلقة . والذِفرى : العظم الذي خلف الأذن ، وهنا الأذن . (٨) الأروع : الذكي . والشان : الأمر أو الحال . أو لعله مفرد (شؤون الخمرة) وهي ما دبّ منها في عروق الجسد . والأبيات في الديوان ص ٣٨١ .

ومسترقِ النخامة مستكين … لوقع الكأس مختلس البيان[١]

حلفتُ له بما حجت قريشٌ … وكلَّ مُشعشعٍ مِ الخمر آنِ[٢]

لتصطحبن وإن أعرضتَ عنها … ولو أني بحيبته سقاني[٣]

فطافت طوفتين ، فقال : زدني … ودبت في الأخادع والبنان[٤]

فلم أعرف أخي حتى اصطبحنا … ثلاثاً ، فانبرى خذِمَ العنان[٥]

فلان الصوت فانبسطت يداه … وكان كأنه في الغل عان[٦]

وراح ، ثيابه الأولى سواها … بلا بيعٍ (أُميم) ولا مهان[٧]

وزاده بها شغفاً أنها كانت تحقق له ، في عالم الوهم والخيال كل الأماني والرغائب التي عجز عن تحقيقها واقع الحياة :

ونشربها فتتركنا ملوكاً … وأُسداً ما ينهنهنا اللقاء[٨]

وقد بلغ من تعلقه بها انه كان إذا صحا من سكره يرى الحياة شبيهة بالموت :

ومُمسكٍ بصداع الرأس من سُكر … نادبته ، وهو مغلوبٌ ، ففداني[٩]

لما صحا وتراخى العيش قلت له … إن الحياة وإن الموت مثلان[١٠]

---

(١) النخامة : ما يدفعه الإنسان من صدره . ومسترقها : مخفيها . يريد أنه جاف الحلق . والمستكين : الخاضع الذليل . والمختلس البيان : العاجز عن الإفصاح عما يريد . وقد كانت كل هذه الصفات لنديمه ، قبل الشرب . (٢) المشعشع : الممزوج . والآني: الحاضر المهيأ . (٣) اصطبح : شرب الخمر صبحاً . والحيبة : الحالة . يقول: لو كنتُ بحالته المحزنة لسقاني . (٤) الأخادع : عروق في الرقبة . والبنان : الأصابع . مفردها : بنانة . (٥) انبرى : بدا . خذمُ العنان : منقطع الزمام طليق يفعل ما يشاء . (٦) الغل : القيد . والعاني : الأسير . (٧) أي وهب ثيابه الخارجية ولم يتركها لبيع أو إهانة والأبيات في الديوان ص ٤١١ — ٤١٢ . (٨) الديوان ص ٤ . (٩) الصداع : ألم الرأس ودُواره . والمغلوب : من غلبته الخمرة . وفدّاني : أجابني قائلاً : فدتك نفسي . (١٠) تراخى العيش : ضعف وفتر (لترك السكر) .

فاشرب من الخمر ما آتاك مشربه   واعلم بأنْ كل عيشٍ صالح فان[1]

ولعله كان يرى في شربها رمزاً لتمدينه ورفعته، وفارقاً يميزه من هؤلاء الأعراب الذين يشربون اللبن وأولئك الذين لم يألفوا منادمة الطبقة الرفيعة، ولم يتعودوا صحبة الأماجد الكرام (؟!)

لا أخدِش الخدش بالنديم ولا   يخشى جليسي إذا انتشيتُ يدي[2]
ولا نديمي المضّ البخيل ولا   يخاف جاري ماعشتُ من وبدي[3]

*   *   *

إني حلفتُ يميناً غير كاذبةٍ   لو كان للحارث الجفنيّ أصحاب[4]
من جِذم غسان مسترخٍ حمائلهم   لا يُغبقون من المعزى إذا آبوا[5]
ولا يُذادون حمراً عيونهم   إذا تُحضر عند الماجد الباب[6]
كانوا إذا حضروا شيب العقار لهم   وطيف فيهم بأكواس وأكواب[7]

الوصف

الطبيعة غانية مفتانة، همها ان يتحدث عنها الناس، وهي، لعجزها عن النطق، تستهوي النفوس الشاعرات بمناظرها الجذابة، وصورها الآسرة، وتجبرها على الكلام بلسانها، والإشادة بذكرها والتغني بمحاسنها.

---

(١) آتاك: وافقك، والأبيات في الديوان ص ٢١٢—٢١٣. (٢) انتشي: سكر. (٣) المض: السيء الخلق. والوبَد: العيب وسوء الحال. والبيتان في الديوان ص ١١٢. ونعت الخمرة في الصفحات: ٣—٤، ٣٠، ١١٢، ١٢٥، ٢٣٥، ٣٠٩، ٣١١- ٣١٣ ٣٨١ — ٣٨٢، ٤١١ — ٤١٢، ٤١٢ — ٤١٣. (٤) يرثي حسان الملك الغساني الحارث بن أبي شمر الذي قتل في حرب كانت بينه وبين المناذرة. (٥) الجذم: الأصل. واسترخاء حمائل السيف: كناية عن العزة. لا يُغبقون: لا يُسقون مساءً. وآبوا: عادوا ورجعوا إلى منازلهم. (٦) يُذادون: يُدفعون ويُطردون. حمراً عيونهم: كناية عن غضبهم من الطرد. وتحضر: حضر، والفعل هنا مبنيّ للمجهول. (٧) شيب: مُزج. والعقار: الخمر. والكوب وجمعها أكواب: القدحَ لاعروة له. وفي القافية إقواء.

ومن غريب النفس الإنسانية المرهفة أن يهتزّ فيها حس الجمال لكل هذه المشاهد : سواء فيها الممتع والموجع ، والضاحك والعابس ، والصاخب والصامت ، والمشرق والرائع .

ولقد عرض لحسان ، في رحلاته الكثيرة المتصلة ، كثير من هذه الصور التي حرّكت في قلبه أوتار الفن وغمرته بروعة الجمال . لكنه لم يصف منها ، في شعره ، إلا التي حملته عليها المناسبات .

أشهر هذه المناسبات الغزل . فلقد حمله على التأنق في وصف الأطلال ومخاطبتها ، ووصف المطر التي جادت عليها وسقتها ، ووصف رحيل القوم من بعد ذلك ، إلى المشتى وما خلف في قلبه من ألم ولوعة ، ووصف الليل الطويل البطيء النجوم :

١ — لقد هاج نفسَك أشجانها وعاودها اليوم أديانها[1]
تذكرت ليلى وأنّى لها إذا قُطعت منك أقرانها[2]
وحجّل سيف الدار غربانها وخف من الدار سكانها[3]
وغيرها معصرات الريا ح، وسح الجنوب وتهتانها[4]
مهاةٌ من العين تمشي بها وتتبعها ثَمّ غِزلانها[5]
وقفت عليها فساءلتها وقد ظعن الحيُّ، ما شأنها[6]
فعيت وجاوبني دونها بما راع قلبي أعوانُها[7]

* * *

٢ — وإذ هي حوراء المدامع ترتعي بمندفع الوادي أراكاً منظماً[8]

(١) الدين هنا : العادة . والجمع أديان . (٢) الأقران جمع قرن : وهو الحبل . (٣) حجل : سار كالحجل . وخفّ : ارتحل مسرعاً . (٤) المعصرات : الرياح التي تأتي بالإعصار . والتهتان : التهطال ونزول المطر . (٥) المهاة : البقرة الوحشية . والعين : بقر الوحش . (٦) ظعن : رحل. (٧) عيت : عجزت عن الكلام . وراع : أخاف . والأبيات في الديوان ص خ — م . قالها حسان لما أبصر محبوبته في دارها مع أترابها ، وقد ظعن قومها (٨) حوَر العين : شدة بياض بياضها وشدة سواد سوادها . ومندَفع الوادي : حيث يندفع السيل . والأراك : شجر . والمنظم : المنتظم في خطوط .

اقامت به بالصيف حتى بدا لها ... نشاصٌ ، إذا هبت له الريح أرزما(١)
وقد ألَّ من أعضاده ودنا له ... من الأرض دانٍ جوزه فتحمحما(٢)
تحنّ مطافيل الرِّباع خلاله ... إذا استنَّ في حافاته البرقُ أثجما(٣)
وكاد بأكناف العقيق وئيده ... يحطّ من الجماء رُكناً ململما(٤)
فلما علا تُربان وانهلّ وَدْقه ... تداعى وألقى بركه وتهزّما(٥)
وأصبح منه كل مدْفع تلعةٍ ... يكبّ العضاه سيله ما تصرّما(٦)
تنادَوا بليلٍ فاستقلت حمولهم ... وعالين أنماط الدِّرقل المرقما(٧)
وأيقنت لما قوّض الحي خيمهم ... بروعات بين تترك الرأس أشيبا(٨)
وأسمعك الداعي الفصيح بفرقة ... وقد جنحت شمس النهار لتغربا(٩)
وبين في صوت الغراب اغترابهم ... عشية أوفى غصن بانٍ فطرّبا(١٠)
وفي الطير بالعلياء إذ عرضت لنا ... وما الطير إلا أن تمرّ وتنعبا(١١)
وكدتُ غداة البين غالبني الهوى ... أعالج نفسي أن أقوم فأركبا(١٢)

---

(١) النشاص: السحاب . وأرزم: أرعد . (٢) ألَّ: برق . والأعضاد: النواحي . والجوز: الوسط . وتحمحم: ردّد الصوت . (٣) المطافيل: الإبل معها صغارها . والرباع جمع رُبَع: وهو الفصيل يُنتج في الربيع . استن: خفق واضطرب . وأثجم: سال . (٤) الكنف: الجانب وجمعه أكناف . والعقيق: وادٍ بيثرب . والوئيد: الصوت الشديد والجماء: موضع في المدينة . والململم: المستدير المجموع بعضه إلى بعض . (٥) تربان: موضع والودْق: المطر . وتداعي: تصدّع وانهدّ . وتهزم الرعد: صوّت . (٦) التلعة: ما ارتفع من الأرض . والعضاه: ما عظم من شجر الشوك . وتصرّم: انقطع . (٧) استقلت حمولهم: رحلوا . والأنماط: الأنواع . والدِّرقل: نوع من الثياب . والمرقم: الموشى والأبيات في الديوان ص ٣٦٧ — ٣٦٨ . (٨) قوّض: هدّ . والروعة: الخوف . والبين: الفراق . (٩) الداعي: المنادي . وجنحت: مالت . (١٠) أوفى: أتى . وطرّب: نعب . (١١) تنعب: تصوّت كالغراب . (١٢) غداة البين: صباح الفرقة . والأبيات في الديوان ص: ١٩ .

٤ – تطاول بالحمان ليلي فلم يكن ... تهمّ هوادي نجمه أن تصوّبا[1]
أبيت أراعيها كأني موكّلٌ ... بها ، لا أريد النوم حتى تغيبا[2]
إذا غار منها كوكب بعد كوكبٍ ... تراقب عيني آخر الليل كوكبا[3]
غوائر تترى من نجوم تخالها ... مع الصبح تتلوها زواحف لغبا[4]

ومن المناسبات التي حملت حسان على الوصف أيضاً ذكراه لحياة النعيم التي أحبها وعشقها ، فكأنه خاف عليها أردية الماضي الثقيلة ، وديدانَ النسيان السحيقة ، فسعى في صوغها في ألفاظ ، وتجميدها في عبارات ، وتخليدها رغم أنف الزمان . هذه الذكرى هي التي دعته إلى وصف خروجه للصيد (الديوان ص ٢٣٦ - ٢٣٧) ونعيم يثرب ومياهها وأشجارها ، وعيد الفصح في قصور الغساسنة :

١ – لنا حَرّةٌ مأطورة بجبالها ... بنى المجد فيها بيته فتأهلا[5]
بها النخلُ والآطام تجري خلالها ... جداول قد تعلو رُقاقاً وجرولا[6]
إذا جَدْولٌ منها تصرّم ماؤه ... وصلنا إليه بالنواضح جدولا[7]
على كل مفهاقٍ خسيفٍ ، غروبها ... تُفرّغ في حوضٍ من الصخر أنجلا[8]
له غَلَل في ظل كل حديقةٍ ... يُعارضُ يَعبوباً من الماء سلسلا[9]

---

(١) الحمان: موضع . وهوادي النجوم : أوائلها . وتصوب : تنحدر وتغرب . (٢) أصلها تغيب . (٣) غار : غاب . (٤) جمع الغائر غوائر . والزواحف: الإبل التعبة . واللاغب: الشديد التعب والجمع : لغب . والأبيات في الديوان ص ١٨ . (٥) الحرة : الأرض ذات الحجارة الكثيرة السوداء . والمأطورة ، المحوطة . وتأهل ، اتخذ أهلاً . (٦) الآطام ، الحصون ، مفردها ، أطم . والرقاق ، الأرض المستوية . والجرول ، الموضع الكثير الحجارة (٧) النواضح ، الإبل التي يُستقى عليها واحدها ناضح . (٨) المفهاق ، البئر الكثيرة الماء . والخسيف ، البئر تُحفر في الحجارة فلا ينقطع ماؤها . والغرب ، الدلو العظيمة . والأنجل ، الواسع . (٩) الغلل ، الماء الذي يجري بين الأشجار . واليعبوب ، النهر الشديد الجري . والسلسل ، الجاري . والقصيدة في الديوان ص ٣٥٣ — ٣٥٤ .

٢— قد دنا الفصح فالولائد ينظمـ ... ـنَ سراعاً أكلة المرجان[١]
يجتنين الجاديَّ في نقب الريـ ... ـطِ عليها مجاسد الكتان[٢]
لم يُعلِّلن بالمغافر والصمـ ... ـغِ ولا نقفِ حنظل الشريان[٣]
ذاك مغنى من آل جفنة في الدهـ ... ـرِ، وحقٌّ تعاقب الأزمان[٤]

وكان الفخر أيضاً من جملة المناسبات التي طرّقت لحسان إلى الوصف. فهو الذي دعاه إلى وصف شعره وبيان أثره في الناس؛ وهو الذي جعله يطيل في نعت نعيم يثرب الذي سبق ذكره، ويعيده في القصائد الأخرى:

لكل أناس ميسم يعرفونه ... وميسمنا فينا القوافي الأوابد[٥]
متى ما نَسِمْ لا ينكر الناس وسمنا ... ونعرفْ به المجهول ممن نكايد[٦]
تلوح به، تعشو إليه وسومنا ... كما لاحَ في سمر المتان الموارد[٧]
فيشفين من لا يستطاع شفاؤه ... ويبقين ما تبقى الجبال الخوالد
ويُشقين من يغتالنا بعداوةٍ ... ويُسعدن في الدنيا بنامن نُساعد
إذا ما كسرنا رمح رابة شاعر ... يجيشُ بنا ما عندنا فنعاود[٨]

كان حسان قادراً على الوصف وعلى النظرة الصائبة التي تقع من الصورة على الخطوط الرئيسة والإشارات الدوالّ. إلا أن هذه الخطوط والإشارات لا ترد

(١) الولائد جمع وليدة: وهي الجارية الصغيرة الحسناء. والأكلة جمع إكليل.
(٢) الجادي: الزعفران. والنقب جمع نقبة: وهي ثوب كالإزار يشد كما تشد السراويل. والريط: الثياب اللينة. والمجاسد جمع مِجسد: وهو القميص. (٣) علله: شغله ولهاه. والمغافر جمع مغفور: وهو صمغ يسيل من الثمام. ونقفُ الحنظل: كسره لاستخراج ما فيه. والشريان: شجر. (٤) المغنى: المنزل. والأبيات في الديوان ص ٤١٥.
(٥) الميسم: أداة الوسم أو أثره. والقوافي: القصائد. والأوابد: الخالدات.
(٦) أي نتبين من كايدناه ونحن لا نعرفه. (٧) تلوح: تظهر. وتعشو: تقصد. والمتان جمع مَتن: وهو المرتفع من الأرض. والموارد: الطرق. (٨) يجيش: يضطرب ويثور. والأبيات في الديوان ص ١١٨ — ١١٩.

كلهـا في بعض الأحيان ، فتأتي الصورة ممحية محيرة ، كما هو الأمر في صفة عيد الفصح ، وقد تتعاقب هذه الصور كثيرة سريعة ، فلا تكاد تتراءى ملامح الأولى حتى تلوها الثانية التي لا تكاد ترتسم حتى تطمسها الثالثة ثم تغشيها الرابعة وهكذا دواليك ؛ وينتهي القارىء من الوصف ولم تتكون في ذهنه صورة واضحة عن الموصوف ، ولم يرتو في نفسه هذا التعطش الفني الذي أوجدته تلك البدايات المغريات . ففي وصف المطر مثلاً يشرع في تصوير لمعة البرق من خلال السحب ؛ وقبل ان يروي غلة القارىء ينتقل الى وصف أهداب الغيوم ، ليطفر منها طفراً الى ذكر اسوداد لونها ، ثم ليشبه ، من بعد ذلك ، صوت الرعود بحنين المطافيل ؛ ولا يكاد يشرع في خط هذا التشبيه الجميل حتى يتركه ليقول إن انصباب الغيث يتلو خفقة البروق .

وقد يبدأ حسان التصوير بنفحة شعرية رائعة ، ثم لا يسير فيه قليلاً حتى يخمد هـذا النفس القوي ، وتغيب تلك الرنة الموسيقية الفخمة ، فيظل أبتر فاسـداً لا تغني فيه الخطرط المضطربة والصـور الضعيفة التي جعلت لتمامه :

١ — ونحن ، إذا ما الحرب حلّ صرارُها   وجادت علىَّ حلاّب بالموت والدم[1]

ولم يرج إلا كل أروع ماجدٍ   شديدِ القوى ذي عِزة وتكرّم

نكون زمام القائدين إلى الوغى   إذا الفشِل الرعديد لم يتقدم[2]

والفشل الرعديد لا يتقدم في معركة ، بالغة ما بالغت من السهولة وضعف الشان . أنهم في مثلها يكون وقومه إلى الوغى قائدين ؟

٢ وإنا إذا ما الأفق أمسى كأنما   على حافتيه ، مسياً ، لون عندمِ[3]

نطعّمُ في المشتى ونطعن بالقنا   إذا الحرب عادت كالحريق المضرّم[4]

---

(١) الصرار : خيط يشد فوق خلف الناقة لئلا يرضعها ولدها . (٢) الديوان ص٣٩٦

(٣) العندم : صبغ أحمر . (٤) الديوان ص ٣٩٦ .

شرع يصف يومَ الجدب ليذكر جود قومه فيه[1] فأحسن البداية ؛ ثم انقطع به النَفَس الشعري فتعجَّل في النهاية لينتقل إلى التنويه بشجاعة قومه في حومات القتال ؛ فجاءت الصورة الأولى بتراء كاسفة ، وجاءت الثانية ناقصة لا تُرضي .

وهناك أمر أخير يُصعِّب علينا استساغة وصف حسان ، هو أن أكثر الألفاظ التي ترد فيه لم تعد مألوفةً في عصرنا ، وأن أغلبها ، إذا اجتمع بعضه إلى بعض ، لم ينشأ عنه تركيب منسجم وجَرْسٌ رخيم :

١ — أقامت به بالصيف حتى بدا لها　　نشاصٌ إذا هبت له الريح أرزما

وأصبح منه كل مَدفع تَلعةٍ　　يكبّ العضاهَ ، سيلُه ما تصرّما

٢ — وقال من قصيدة يصف فيها خروجه للصيد .

فتولى الغلام يقدع مُهراً　　تئق الغرب مانعاً للسياط[2]

ثم والى بسمحجٍ ونحوصٍ　　وبعلجٍ يكُفُّه بعلاط[3]

ولكي نتثبت من كل ما تقدم عن مزايا وصف حسان ، يكفي أن نوازن بين قوله في وصف المطر وقول أوس بن حجر ، المعدود من أجمل ما قيل في هذا الموضوع في الجاهلية[4] ؛ فنجد وصف حسان أجمل وأصدق وأخصب ، ووصف أوس أظهرَ معنىً وأوضح صورةً وأنصع ديباجةً وأجمل جَرْساً[5] .

---

(١) طرق الفرزدق ، من بعده ، الموضوع نفسه ، في فائيته المشهورة ، فوصف يوم الجدب وصفاً دقيقاً جامعاً رائعاً في سبعة أبيات . راجع الديوان طبعة الصاوي ج ٢ ص ٥١١ .

(٢) يقدع : يُمسك ويكف . وتئق الغرب : سريع الحدة ، نشيط . (٣) السمحج : الأتان الطويلة الظهر . والنحوص : الأتان السمينة . والعلج : حمار الوحش . يكفه : يمنعه من الجري . والعلاط : الطعن والرمي . والبيتان في الديوان ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

(٤) تجدها في ديوان حسان بالهامش ص ٣٦٧ . (٥) الوصف في الديوان في الصفحات : خ — م ، ١٨ ، ١٩ ، ١١٨ ، ١٦٨ — ١٧٤ ، ٢٣٦ — ٢٣٧ ، ٢٥٢ ، ٣٤٩ — ٣٥٠ ، ٣٥٣ — ٣٥٤ ، ٣٦٧ — ٣٦٨ ، ٣٧٣ ، ٣٩٣ — ٣٩٤ ، ٤١٥ .

الفخر

إن كانت طبيعة حسان الاجتماعية تدفعه إلى مجالس الأنس والمرح ، فلقد كانت طبيعته الفطرية تجذبه الى التبجح والافتخار ، وحب الفخر غريزة قاهرة في نفس حسان[1] بلغ من شدتها أنها ملأت شعره وظهرت في كل غرض من أغراضه . فهو يفتخر إذ يتغزل :

ولقد تجالسني فيمنعني ضيق الذراع وعلة الخفر[2]

ويمدح الخمرة لأنه يظنها فارقاً يميزه وصحبه الكبراء من الأعراب والعوام ، كما مرّ عند الكلام عن الخمر . ويصف أثر شعره في المهجوين ومشاهدَ الطبيعة المنوعة ، متى أتاح له الوصف فرصة الزهو والافتخار كما تقدم في باب الوصف . وسنرى بعدُ أن نسغ الفخر هو الذي كان يبعث في هجاء حسان ومدحه ورثائه طلاوة الجودة ورونق الحياة . وزاد هذا الميلَ الفطري للفخر قوةً نسب كريم ومآثر خالدات ، وجاه عند الملوك عظيم . ثم وُجدت عوامل أخرى مؤاتية نمّت هذا الميل وقوّته ، حتى أضحى سمة بارزةً لنفس حسان .

أشهر هذه العوامل خموله في المعارك . ولا يُستغرب هذا من شاعر مولع بالحياة[3] ، وكأنه عُيّر بهذا الخمول فنفاه عنه وافتخر بقدرته على الحروب ولا سيما حروب اللسان :

لعمرُ أبيك الخير (يا شعثُ) ما نبا علي لساني في الخطوب ولا يدي[4]

لساني وسيفي صارمان كلاهما ويبلغ ما لا يبلغ السيف مِذْوَدي[5]

---

(١) لما هجاه قيس بن الخطيم شاعر الأوس اتهمه باللدَد والصيد (الديوان ص ١٠٠) . واللدَد : شدة الخصومة . والصيد : الزهو والتيه . (٢) الخفر : الحياء .

(٣) استفاد القرشيون ، حين كانوا يهاجونه ، من هذا الأمر ، فبالغوا في اختلاق الروايات المختلفة عن جبنه . راجع أشهر هذه الروايات في الديوان في الصفحتين : ص و ق .

(٤) نبا السيف : لم يقطع . (٥) المذود : اللسان . والبيتان في الديوان ص ١٢٧ .

ومن هذه العوامل كثرة الخصوم . فلقد كان لشاعرنا في الجاهلية أعداء كثيرون . أبغضه بعضهم لقبيلته وعاداه بعضهم لتكبره وتيهه ؛ ولقد شكا منهم حسان في شعره :

وأن لم يزل لي، منذ أدركتُ ، كاشحٌ عـدوٌ أقاسيه وآخر حاسـد[1]
فمـا منهما إلا وأني أكيله بمثلٍ له ، مثلين أو أنا زائد[2]

فكأنه لم يأنس في نفسه القدرة على مصاولتهم ، فهجاهم قليلاً ثم اعتصم بالفخر ؛ وهل الفخر إلا ضرب من حروب الكلام ، يُلتزم فيه جانب الدفاع ؟

ولقد ازداد عدد أولئك الخصوم في الإسلام . وملأ عليه القرشيون الآفاق شعراً فزادهم تيهاً وفخراً .

وفي الواقع ، لقد أمدّ الإسلامُ فخرَ حسان بمادة لا ينضب لها معين . لقد كان قومه الأنصار أول من أعلى شأن الدين ، ونصر سيد المرسلين ؛ ولم يكن لهم ، منذ دخلوا في دين الإسلام ، إلا الشأن المتعالي ، والأيام الغرّ ، والوقائع المشهورات . وهكذا جمع أبو عبد الرحمن عزّ الحاضر إلى مجد الماضي فاختال على الناس وتاه .

زد علىَ ذلك أنْ كانت أهاجي بعض القرشيين ، في ذلك العهد ، تنال من الأوس والخزرج ، دون سائر المسلمين[3] ؛ فكان شاعر الأنصار يدفع عنهم بالهجاء حيناً ، وبالفخر في أكثر الأحيان .

---

(١) الكاشح : المبغض . (٢) البيتان في الديوان ص ١١٦ .

(٣) قال ضِرار بن الخطاب من قصيدة في يوم بدْر :

عجبتُ لفخر الأوس ، والحين دائر عليهم غداً والدهر فيه بصائرُ
وفخرِ بني النجار أنْ كان معشر أصيبوا ببدر ؛ كلهم ، ثَمّ ، صابر

« سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٧ ، طبع م . م . عبد الحميد » .

كان حسان يفخر بنفسه وبالخزرج والأنصار . وكان إذا افتخر بنفسه وصفها بالشجاعة والكرم وانطلاق اللسان ووجود الناصر ، كعادة الجاهليين ؛ وزاد صفات أخرى تكون له ، في حياته اليومية ، بين إخوانه ونَداماه وبني قومه كاختياره للعُشَراء وحبه للسمر والغنـاء ومكارمة من يكارمه ، و كتمان سر القبيلة وحفظ غيبها ومعاداة أعدائهـا ، والحياء والعفة وقلة الكلام والصبر على كوارث الأيام :

١ — يأبى لي السيفُ واللسان وقو مٌ لم يُضاموا كلبدة الأسد
لا أخدِش الخدشَ بالنديم ولا يخشى جليسي ، إذا انتشيتُ يدي
ولا نديمي العِضُّ البخيل ولا يخاف جاري ، ماعشتُ ، من ويدي[(١)]

٢ — فلا المال يُنسيني حيائي وعفتي ولا واقعاتُ الدهر يفللن مِذودي
وإني ليدعوني الندى فأجيبه وأضرب بيضَ العارِض المتوقّد[(٢)]
وإني لحلوٌ ، تعتريني مَرارةٌ وإني لترّاك لما لم أعوّد[(٣)]

٣ — فإما هلكتُ فلا تنكحي ظلومَ العشيرة حسادهـا
وإن عاتبوه على مِرّةٍ ونابت مُبيّتةٌ زادهـا[(٤)]

٤ — فإذا الحوادث ما تُضعضِعني ولا يضيق بحاجتي صدري
يُعيي سقاطي من يُوازنني إني لعمرُك لستُ بالهذر[(٥)]
إني أكارم من يكارمني وعلى المكاشح ينتحي ظفري
لا أسرق الشعراء ما نطقوا بل لا يوافق شعرهم شعري[(٦)]

---

(١) الديوان ص ١١٢ . (٢) العارض : السحاب الممطر . وباض السحاب بيضاً : أمطر بشدة . والمتوقد : الذي تلمع فيه البروق . وبيضَ هنا : مفعول مطلق . (٣) الديوان ص ١٢٨ — ١٣٠ . (٤) المِرّة : الحالة . والمبيتة : المكيدة المدبرة ليلاً . زادَها : هنا زادها شراً . والبيتان في الديوان ص ١٣٩ . (٥) السقاط : الزلة وهنا ، الهفوات أو أضعف الأشعار . والهذِر : الثرثار . (٦) الديوان ص ١٧٤ .

— ولا أصالح من عادَوْا وأخذُلهم ولا أغيبُ لهم يوماً بإقذاع[١]

أما فخره بالخزرج فقد كان كفخر عامة الجاهليين تمدُّحًا بالأجداد العظام ، والحسب الفاخر القاهر ، والكرم في الجدْب والبطش في الحرب ، وحمل النفس علَى المكاره وفكِّ العُناة ، وتسويد ذي المروءة المكلَّل بالجلال ولو أعْدَم[٢] ، والعدل في الحكم والترفع عن الخنا ورديء الكلام . ولا يتميز هـذا الفخر من غيره من أقوال شعراء ذلك العصر إلا بهذا الاندفاع الشديد الذي يلمسه القاريء في كل بيت ، وهذا التلذُّد بالإفتخار الذي يبلغ به ، أحياناً ، حدَّ الإفراط والتهوُّس[٣] :

١ — جَدّي أبو ليلى ووالده عمرو ، وأخوالي بنو كعب
وأنا من القوم الذين إذا أزَم الشتاء محالفَ الجدْب[٤]
أعطى ذوو الإحسان مُعسِرَهم والضاربين بموطن الرُّعب[٥]

٢ — فلو يصدقون لأنبَوْكُم بأنا ذوو الحسب القاهر
وأنا مساعير عنـد الوغى نردّ شبا الأبلغ الفاجر[٦]
ورثتُ الفعال وبذل التـلا دِ والمجدَ عن كابر كابر[٧]
وحملَ الدّيات وفكّ العُنـا قِ والعزّ في الحسب الفاخر[٨]

٣ — نَشَدْتُ بني النجار أفعال والدي إذا لم يجد عانٍ له من يُوارعه[٩]
ألسنا نُنصُّ العيسَ فيه على الوجى إذا نام مولاه ولذَّت مضاجعه[١٠]

---

(١) الإقذاع : القول السيء الفاحش . والبيت في الديوان ص ٢٥٦ . (٢) أعدَم : افتقر . (٣) التهوّس الذي يفسره علم النفس لا كتب اللغة [La Manie] (٤) أزَمه : عضه واشتد عليه . (٥) الديوان ص ٣٣ . (٦) المساعير واحدها مِسعر : وهو الذي يُشعل الحرب وبه تحمى . والشبا مفردها شَباة : وهي الحدّ . والأبلغ : المتكبر . (٧) الفعال : الأفعال المجيدة . والتلاد : الأموال الموروثة عن الآباء والأجداد . (٨) الديوان ص ١٩٦ . (٩) العاني : الأسير . ويوارعه : يكالمه . (١٠) العيس : كرائم الإبل . ونصها : سوْقها بشدة . والوَجى : أن يشتكي البعير باطن خفه فيسير سيراً خاصاً . ومولى الأسير : هنا ابن عمه .

ولا ننتهي حتى نفُكّ كُبولَه بأموالنا ، والخيرُ يُحمَد صانعه[1]
وأبقى لنا مَرُّ الحروب ورزؤها سيوفاً وأدراعاً وجمّاً عرمرما[2]
لنا حاضرٌ فعمٌ وبادٍ كأنه شماريخ رضوى عزة وتكرّما[3]
متى ما تزِنّا من مَعَدٍ بعصبةٍ وغسانَ ، نمنعْ حوضنا أن يُهدّما[4]
وَلَدنا بني العنقاء وابنيْ مُحرِّق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما[5]
نُسوِّدُ ذا المال القليل إذا بدت مروءته فينا ، وإن كان مُعدِما[6]
لنا الجفنات الغُرّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطُرْن من نَجدةٍ دما[7]
أبى فعلُنا المعروفَ أن ننطق الخنا وقائلُنـا بالعُرف إلاّ تكلُّما[8]

وافتخار حسان بالأنصـار يشبه افتخاره بالخزرج مضافاً إليه تعداد مناقب الأوس ، والتمدح بأنهم جميعاً أول من نصر الرسول ، بعـد أن أنكرت دعوته قريش ، وتجهمت له الأرض ، وأن الله تعـالى خصهم بهذا الإكرام وبتصديق النبيّ الداعي إلى الحق ، وأن لهم أبطالاً صناديد ماتوا في سبيل الدفاع عن الإسلام :

١ — وكنا ملوكَ الناس قبل محمـد فلما أتى الإسلام كان لنا الفضلُ
وأكرمنا الله الذي ليس غيرُه إلهٌ بأيام مضت ما لهـا شكلُ
بنصر الإله للنبيّ بدينـه وأكرَمنا باسمٍ مضى ما له مثلُ
ومنا أمين المسلمين حيـاته ومَنْ غسلته من جنابته الرسلُ[9]

(١) الديوان ص ٢٦٣—٢٦٤ (٢) الرُزء : المصيبة العظيمة . والعرَمرَم : الكثير .
(٣) الفعم : الكثير الممتلىء . والبادي : الماضي . ورَضوى : جبل . وشماريخه : أعاليه .
(٤) من مَعدّ : أي من العدنانيين . وغسان : الواو للقسم . (٥) العنقاء هو ثعلبة بن عمرو ابن عامر بن ماء السماء . ومُحرِّق هو الحارث بن عمرو . (٦) المعدِم : الفقير .
(٧) الجفنات : القصاع الواسعة . والنجدة : نُصرة المستنجد . (٨) العرف : المعروف . والأبيات في الديوان ص ٣٧٠ — ٣٧٢ . (٩) أمين الله هو أمين المسلمين سعد بن معاذ الأوسي الذي اهتز لموته العرش . أما حنظلة بن عامر فقتل يوم أحد وغسلته الملائكة .

٢ – ألا أيها الساعي ليدرك مجدنا … نأتك العلا، فاربع عليك فسائل![1]
فهل يستوي ماءان أخضر زاخر … وحسيٌ ظَنونٌ ماؤه غير فاضل،[2]
تناول سهيلاً في السماء فهاته … ستدركنا إن نلته بالأنامل[3]
لنا جبل يعلو الجبال مشرَّفٌ … فنحن بأعلى فَرعه المتطاول[4]
مساميح بالمعروف وسطَ رحالنا … وشباننا بالفحش أبخل باخل
ومَنْ خيرُ حيّ تعلمون لسائل … عفافاً، وعانٍ موثَق بالسلاسل؟[5]
ومَنْ خيرُ حيّ تعلمون لجارهم … إذا اختارهم في الأمن أو في الزلازل[6]
وفينا إذا ما شبت الحرب سادةٌ … كهول وفتيان طوال الحمائل[7]
نصرنا وآوينا النبيّ وصدَّقت … أوائلنا بالحق أولَ قائلِ
وكنا متى يغزُ النبيّ قبيلة … نصل حافتيه بالقنا والقنابل[8]
ويومَ قريشٍ إذ أتونا بجمعهم … وطئنا العدوَّ وطأة المتثاقل
وفي أُحُدٍ يومٌ لهم كان مُخزياً … نطاعنهم بالسمهريّ الذوابل[9]
ويومَ ثقيف، إذ أتينا ديارهم … كتائب نمشي حولها بالمناصل[10]
ففروا وشد الله ركن نبيّه … بكلّ فتى حامي الحقيقة باسل[11]
وإني لسهل للصديق وإنني … لأعدِل رأسَ الأصعر المتمايل[12]
وأجعل مالي دون عرضي وقايةً … وأجبُنه كي لا يطيب لآكل

(١) نأتك: أبعدتك. اربع عليك: اقعد وابق على حالتك. (٢) الزاخر: الكثير. والأخضر: البحر. والحسي: الماء القليل. والظنون: الذي لا يوثق بمائه لقلته وفساده.
(٣) سهيل: نجم في السماء. (٤) فرع الجبل: أعلاه. (٥) العاني: الأسير.
(٦) الزلازل: أيام الشدة. (٧) حمائل السيف: التي يعلق بها. مفردها: حمالة. وطوال الحمائل كناية عن طول القامة. (٨) القنبلة: الطائفة من الخيل والناس. والجمع: قنابل. (٩) السمهري: الرمح الصلب. والذابل: الرمح الدقيق العود، جمعه ذوابل.
(١٠) المنصل: السيف. جمعه مناصل. (١١) حقيقة الرجل: ما يلزمه حفظه ومنعه وحمايته.
(١٢) الأصعر: المائل العنق تكبراً.

وأي جديد ليس يدركه البلى وأيُّ نعيم ليس يوماً بزائل[1]

وخلاصة القول أن فخر حسان جيد مطرب ، تتفجر فيه المعاني عيون الشعر صافيةً ثرّارة ، وتنبثق منها التشابيه والخيالات لمّاعةً مستحيلة ، وتسيل حلوةً مغريةً في ثوب من الألفاظ قشيب ، على موسيقى فاتنة ، فيها هزّة ونشاط ، وفيها علوّ وأريحية ؛ فيشعر القارئ أن حسان ، في هذا الغرض الشعري ، في الميدان الذي يستطيع فيه أن يجول ويصول ، ويعرف كيف يقول[2] .

الهجاء

يتطلب الهجاء نفساً مظلمة كالصخور ، أوجعتها نوائب الدهر ، وجرحت كبرياءها مظالم الناس ؛ فاسودّت في عينيها الحياة ونقمت على البشر ؛ فأخذت تسقط عيوبهم ، وتجمع معايرهم ، لتنفثها من بعد ذلك كرهاً دفيناً ولهباً مسموماً ومن الواضح البديهي أن لا يجيد حسان هذا النوع من القول في الجاهلية ، وهو الذي أحب حياة اللهو والعبث ، ونشد اللذة والسرور في كل مكان . فكان إذا اضطر إليه اضطراراً قال فيه الأبيات القليلة لردّ الخصوم ، ثم فرّ منه إلى الفخر : هذا الضرب الوديع المسالم من الهجاء الذي كان يتقنه أشد الإتقان .

---

(١) الديوان ص ٣١٤ — ٣١٧ .

(٢) الفخر في الديوان في الصفحات : ١٧ ، ٣٢ — ٣٣ ، ٥٤ ، ٨٠ — ٨١ ، ٨٧ — ٨٨ ، ١٠٥ — ١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٣ — ١١٨ ، ١٢٧ — ١٣٠ ، ١٣٩ — ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥٤ ، ١٧٤ ، ١٨٧ ، ١٩٦ — ١٩٧ ، ٢٠٤ — ٢٠٧ ، ٢٥٦ — ٢٥٧ ، ٢٦٤ — ٢٦٥ ، ٢٨٤ — ٢٨٥ ، ٢٨٦ — ٢٩٠ ، ٣٠٢ — ٣٠٤ ، ٣٠٨ — ٣١٣ ، ٣١٣ — ٣١٦ ، ٣٢٦ — ٣٢٧ ، ٣٢٨ — ٣٣٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ — ٣٥٥ ، ٣٧٠ — ٣٧٢ ، ٣٧٢ — ٣٧٦ ، ٣٧٧ — ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ — ٣٨٥ ، ٣٨٦ — ٣٨٧ ، ٣٨٩ — ٣٩١ ، ٣٩٥ — ٣٩٧ ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤٢٥ — ٤٢٦ .

وما ظنّنا بشاعر يهجوه قيس بن الخطيم بقصيدة فيها عشرة أبيات موجعة ، فيرد عليه بقصيدة كلها فخر ، وليس فيها إلا ثلاثة أبيات من الهجاء[1] ؟

بل ما الرأي في شاعر يطاول الفحول في المدح ، بمجلس عمرو بن الحارث الغساني ؛ ثم يذهب إلى الخنساء التي لم تعتد الهجو ، ويرجوها أن تعينه على هجاء قيس بن الخطيم فتأبى كل الإباء[2] ؟

ظل حسان لا يُعنى بالهجاء حتى انقضى عهد الجاهلية ، وانقضت معه حياة اللهو واللعب ، وأسلم وندب نفسه للدفاع عن الإسلام ؛ فهاجاه الكفار وأثقلوا عليه الشتم والسباب ، وأفحشوا له ولقومه بالقول ، وتسقطوا مثالبه وقعدوا له كلّ مَرْصد ، وحملوه على العناية بالهجو حملاً .

ولقد أعانه على التوفق في هذه الحرب الفاضحة التي لم يعتد خوضها ، أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، الذي كان يدله على مثالب القرَشيين ومغامز أنسابهم ، فيصوّرها حسان تصويراً شعرياً ، وينظمها في وزن ، ويقذف بها وجوه الأعداء فيشفي ويشتفي[3] .

كان هذا الفن الجديد في شعره يعتمد : (أ) على ذكر معايب الكفار ومَناقصهم ، وإسنادِ القبيح إليهم (ب) وعلى ذكر الكلمات البذيئات والمعاني المخجلة للمهجوين . (حـ) وعلى الإضحاك والسخرية . (د) وعلى الدفاع عن الأنصار بالتباهي والافتخار .

أ — ١ ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مُجوّفٌ نخبٌ هواءُ[4]
بأن سيوفنا تركتك عبداً وعبد الدار سادتُها الإماءُ[5]

---

(١) الديوان ص ١٢٢ — ١٣٢ . قال قيس « في قصيدته » :

إذا المرء لم يُفضل ولم يلق نجدة مع القوم فليقعد بصغر ويبعد

(٢) الأغاني ج ٢ ص ١٦٣ . (٣) كما قال عليه الصلاة والسلام . (٤) الأجوف : الخالي الجوف من القلب . ومثله النخب والهواء . (٥) عبد الدار بطن من قريش كانوا يحملون الراية في أحد . فلما قتل حاملها تناقلها بينهم أبطال منهم كثيرون ، فقتلوا جميعاً فأخذها عبد لهم أسود .

٢ — يا حار إن كنتَ امرأً متوسعاً ... فافقدِ الألى ينصفن آل جنابِ[1]

أجمعتُ أنك أنت ألأم من مشى ... في فُحش مومسة وزول غراب[2]

وكذاك ورّثك الأوائل أنهم ... ذهبوا وصرت بخزية وعذاب

فورثت والدك الخيانة والخنا ... واللؤم عند تقايس الأحساب[3]

وأبان لؤمك أن أمك لم تكن ... إلا لشر مقارف الأعراب[4]

٣ — يا آل سهم فإني قد نصحت لكم ... لا أبعثنّ على الأحياء من قبرا

ألا ترون بأني قد ظُلمت إذا ... كان الزِبَعرى لنعلَي ثابتٍ خطرا[5]

كم من كريم بعَضّ الكلب مئزره ... ثم يفرّ إذا ألقمته الحجرا[6]

ب — . . . .

حـ — ١ — قال يهجو قوماً من مزينة حين مرّ بمجلسهم فضحك منه بعضهم

أبوك أبوك وأنتَ ابنُه ... فبئس البُنَيّ وبئس الأبُ

وأمك سوداء نوبيـة ... كأنّ أناملهـا الحُنظبُ[7]

إذا سمعوا الغيّ آدوا له ... تيوس تنبُّ إذا تضربُ[8]

ترى التيس عندهم كالجوا ... دِ بل التيسُ وسطهم أنجبُ

فلا تدعهم لقراع الكماة ... ونادِ إلى سوأة يركبوا[9]

---

(١) المتوسع : ذو الثروة . الألى : اولئك (النسوة) اللواتي . وينصفن : يخدمن . وجناب : هو ابن عبد الله الكلبي . (٢) زوْل الغراب: مشيته الخاصة به . (٣) الخنا : الفحش في الكلام . (٤) المقارف : المقارب للدنية . والأبيات في الديوان ص ٥٩ — ٦١

(٥) عبد الله بن الزبعرى شاعر هاجى المسلمين ثم أسلم بعد الفتح . وثابت : أبو حسان . الخطر : الشأن و (الأهمية) . (٦) المئزر : الإزار . والأبيات في الديوان ص ٢٢٥

(٧) النوب : القوم من السودان والحنظب : ضرب من الخنافس . (٨) آدوا : عادوا واجتمعوا . تنبّ : تصيح . (٩) الكماة جمع كميّ : وهو الفارس التام السلاح . والسوأة : الأمر السيء . والأبيات في الديوان ص ٦١ — ٦٢ .

٢ — أما الحماس فاني غير شاتمهم لاهم كرام ولا عرضي لهم خطر
كأن ريحهم في الناس، إذ برزوا ريح الكلاب إذا ما بلها المطر
أولاد حام فلن تلقى لهم شبهاً إلا التيوس على أكتافها الشعر[1]
إن سابقوا سُبقوا، أو نافروا نُفروا أو كاثروا أحداً من غيرهم كُثروا[2]
شبه الإماء، فلادين ولاحسب لو قامروا الزنج عن أحسابهم قُمروا[3]
تلقى الحماسيّ لا يمنعك حرمته شبه النبيط، إذا استعبدتهم صبروا[4]

٣ — لو خُلق اللؤم إنساناً يكلمهم لكان خيرَ هذيل حين تأتيها
تبكي القبور اذا مات ميتهم حتى يصيح بمن في الأرض داعيها
مثل القنافذ تخزي أن تفاجئها شدّ النهار، ويأتي الليلَ ساريها[5]

د — لقد خاب قوم غاب عنهم نبيهم وقُدّس من يسري إليهم ويغتدي[6]
ترحّل عن قوم فضلّت عقولهم وحلّ على قوم بنور مجدد
هداهم به بعد الضلالة ربهم وأرشدهم، من يتبع الحق يرشد
وهل يستوي ضُلّال قوم تسفهوا عمىً، وهُداة يهتدون بمهتد؟
لقد نزلت منه علَى أهل يثرب ركاب هدىً حلّت عليهم بأسعد[7]

لا شك أن حسان لم يسيطر على أدغال الهجو الرهيبة سيطرة معاصره الضاري أبي مليكة جرول، لأنه لم يخلق له بالفطرة، ولأن المجال الذي كان يجول فيه، وهو يهجو الكفار من بيت الرسول، كثير المهاوي والمزالق،

---

(١) حام بن نوح : جدّ السودان . (٢) نافره : فاخره في الحسب والنسب . (٣) الاماء : الجواري . مفردها : أمة . وقامره : راهنه ولاعبه في القمار . وقمره : غلبه في القمار . (٤) النبيط : قوم سكنوا الشام . (٥) شدُّ النهار : طوله وامتداده وهي هنا منصوبة على الظرفية . (٦) يسري اليهم : يسير ليلاً . ويغتدي : يسير صباحاً في الغداة . (٧) السعد : اليمن . وضده : النحس . والجمع أسعد . والأبيات في الديوان ص ٨٧—٨٨

ولأنه كان يُضطر أحياناً إلى هجاء أقوام لم يعرفهم ، ولم يتأذ منهم ، ولأن الاعتماد على الخنا والكلام الرَذْل مما يضعف الهجاء[1] .

ومهما يكن من أمر فلقد هجا حسان وأوجع[2] ، وثبت للمشركين وردّ أقوالهم الفاحشة في نحورهم ؛ وكان شعره — كما قال عليه السلام — أشدّ عليهم من وقع السهام في غَبش الظلام[3] .

المديح

كان العربي ، قبل الإسلام ، يفتخر ويشاء امتداح نفسه وقبيلته ؛ وكانت النعرة القبلية والعصبية الجاهلية تحجزان الشعراء عن مدح سادة القبائل الأخرى . ولم يَتخذِ المدحَ سبيلاً للكسب إلا الشعراء الذين غلب حبهم للجمع على تعلقهم بقومهم كالأعشى والحطيئة ؛ فطوّفوا في الآفاق ، ومدحوا الملوك والرؤساء ، وجنوا من وراء ذلك ما استطاعوا

---

[١] لعل القارىء ينتظر أن نعد كبر سن الشاعر سبباً خامساً . والحق أنه ، وإن كان يقصر النفس ، ويضيق على صاحبه المذاهب ، يكسب الشاعر النظرة المتفحصة الناقدة ، والنقمة على الدنيا والناس المميتين على الهجاء . [٢] كان بنو عبد المدان يفتخرون ببسطة الجسم إلى أن تعرض أحد شعرائهم لحسان فهجاه بقصيدة منها :

لا بأس بالقوم من طول ومن قِصر جسم البغال وأحلام العصافير

فأفسد افتخارهم عليهم ، فجاءوه معتذرين ، فرضي عنهم ومدحهم بقوله :

وقد كنا نقول إذا رأينا لذي جسم يُعدّ وذي بيان
كأنك أيها المعطى لساناً وجسماً من بني عبد المدان

٣ هجاء حسان في الديوان ص ٧ ـ ٨ ، ١٢ ـ ١٣ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ـ ٥٩ ، ٦٠ ـ ٦١ ، ٦١ ـ ٦٢ ، ٦٧ ، ٨٧ ـ ٨٨ ، ١٠٨ ـ ١٠٩ ، ١٣١ ـ ١٣٢ ، ١٤٠ ـ ١٤١ ، ١٤٢ ـ ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ـ ١٦١ ، ٢١٠ ـ ٢١١ ، ٢١٤ ـ ٢١٥ ، ٢٢١ ـ ٢٢٢ ، ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٦ ـ ٢٢٨ ، ٢٧٦ ـ ٢٧٧ ، ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ، ٣٠٢ ـ ٣٠٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ـ ٣٤٧ ، ٣٥٧ ـ ٣٥٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٤ ، ٤١٧ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

أن يجنوه من خير ومال[1] . وقد روت الرواة أن النابغة الذبياني من الأشراف الذين غضّ المدح من شأنهم . لذا لم يُعنَ حسان بهذا الغرض في الجاهلية عناية كبيرة ، كما يتوهم بعض الناس ؛ ولولا حبه لحياة القصور وقرابته للغساسنة التي تُدني مديحه من الفخر لما مدحهم بلاميته المشهورة التي أسماها عمرو بن الحارث البتارة التي بترت كل المدائح :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل ... بين الجوابي فالبُضَيع فحوملِ[2]
دار لقوم قد أراهم مرةً ... فوق الأعزة ، عزُّهم لم يُنقلِ
لله درُّ عصابة نادمتهم ... يوماً بجلّق في الزمان الأول[3]
يمشون في الحُلل المضاعف نسجُها ... مشيَ الجمال إلى الجمال البُزّل[4]
الضاربون الكبش يبرق بَيضه ... ضرباً يُطيح له بَنان المَفْصِل[5]
والخالطون فقيرَهم بغنيّهم ... والمنعمون على الضعيف المُرمِل[6]
أولادُ جَفنةَ حولَ قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المُفضِل[7]
يُغشون حتى ما تهر كلابُهم ... لا يَسألون عن السواد المُقبِل[8]
يسقون من وَرَد البريص عليهمُ ... بردى يُصفّق بالرحيق السلسل[9]
بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم ... شُمُّ الأنوف من الطراز الأول[10]
نسبي أصيلٌ في الكرام ومِذودي ... تكوي مياسِمُه جُنوب المصطلي[11]

(١) المال هنا : الإبل والغنم . (٢) الجوابي والبضيع وحومل مواضع في الشام . (٣) العصابة : الجماعة ، وجلق : دمشق . (٤) المضاعف نسجها : المبطنة . والبازل : البعير إذا بلغ الثامنة من عمره واستكمل . والجمع بُزّل . (٥) الكبش : رئيس القوم . والبيض جمع بيضة وهي الخوذة . أطاح : أذهب . والمفصل : هنا اليد . (٦) المرمل : اللاصق بالرمل لفقره . (٧) جفنة بن عمرو : أبو ملوك غسان . (٨) يُغشون : يُقصدون . (٩) البريص : قصر . يُصفق : يُمزج . (١٠) الشمم في الحقيقة : ارتفاع في قصبة الأنف . وفي المجاز الأنفة والعزة . والطراز النوع والشكل . (١١) المياسم ج ميسم : حديدة يُكوى بها . والمصطلي : المقارب للنار .

ولقد تقلدنا العشيرة أمرها ونسود يوم النائبات ونعتلي
ويسود سيدنا جحاجح سادة ويصيب قائلنا سواء المفصل[١]
وتزور أبواب الملوك ركابنا ومتى نحكم في البرية نعدل[٢]

فلما جاء الإسلام اتصل فخر حسان المزداد بالمدح والهجاء فقوي مدحه كما قوي هجاؤه ، وأصبح يقول القصائد في مدح الرسول وأبطال المسلمين :

قال يمدح الرسول عليه الصلاة والسلام :

١ — وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء[٣]
٢ — متى يبد في الداجي البهيم جبينه يلح مثل مصباح الدجى المتوقد
فمن كان أو من قد يكون كأحمد نظاماً لحق أو نكالاً لملحد ؟[٤]

وقال يمدح أبا بكر الصديق :

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
التالي الثاني المحمود شيمته وأول الناس طراً صدق الرسلا[٥]
والثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صعد الجبلا[٦]
وكان حب رسول الله ، قد علموا من البرية ، لم يعدل به رجلا[٧]
خير البرية أتقاها وأرأفها بعد النبي وأوفاها بما حملا[٨]

لكن كل هذه الأماديح ، بالنسبة إلى كثرة الشعر المروي لحسان ،

(١) الجحاجح : السادة . وإصابة سواء المفصل كناية عن إصابة الغرض وبلوغ القصد .
(٢) القصيدة في الديوان ص ٣٠٧ — ٣١٢ . (٣) الديوان ص ١٠ (٤) النكال : العقاب : يكون عبرة للآخرين . والبيتان في الديوان ص ١٠١ . (٥) الشيمة : الطبع والسجية . (٦) المنيف : المرتفع . (٧) الحب : المحبوب . (٨) الديوان ص ٢٩٩ — ٣٠٠ .

قليلة لا تنفع صدى . وهي — كما نرى — ليست كلها من جيد القول ؛ لأن شاعرنا ، في هذا الباب ، في الهجاء ، لا يجيد الكلام إلا إذا وجد فيه سبيلاً للافتخار ؛ فإن كانت عينيته التي أسمعها وفد تميم جيدةً حقاً فخمةً حقاً فذلك لأنها مدح للرسول وآله ، وفخر بالأنصار :

إن الذوائب من فِهرٍ وإخوتهم قد بيّنوا سُنّةً للناس تُتّبع[1]
يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا[2]
قومٌ إذا حاربوا ضروا عدوّهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا[3]
سجيةٌ تلك فيهم غيرُ محدثةٍ إن الخلائق فاعلم : شرُّها البدع[4]
لا يرقع الناس ما أوهت أكفّهم عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا[5]
إن كان في الناس سبّاقون بعدهم فكل سَبقٍ لأدنى سبقهم تَبَع[6]
لا يجهلون ، وإن حاولتَ جهلهمُ في فضل أحلامهم عن ذاك متّسع[7]
أعفّةٌ ذُكرت في الوحي عفّتهم لا يطبَعون ولا يُرديهم الطمع[8]
أعطوا نبيَّ الهدى والبرَّ طاعتهم فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا[9]
خذ منهم ما أتى عفواً إذا غضبوا ولا يكن همَّك الأمرُ الذي منعوا[10]
أكرِمْ بقومٍ رسولَ الله شيعتهم إذا تفرّقت الأهواء والشيع[11]

---

(١) ذؤابة : كل شيء أعلاه والجمع ذوائب . والسنة : الطريقة . (٢) السريرة : النية . وشرعوا : بينوا . (٣) الأشياع جمع شيعة : الأنصار . (٤) الخلائق مفردها خليقة : وهي الطبيعة . والبدَع مفردها بِدْعة : وهي الأمر الجديد المستحدث . (٥) أوهى : أضعف . (٦) الأدنى : الأقل والأبعد عن السبق . (٧) الفضل : الزيادة . والجهل هنا ضد الصلاح والرشاد . (٨) لا يطبعون : لا يفعلون ما يدنسهم . ويُردي : يُهلك . (٩) البر : الخير والإحسان . ونى : ضعف . ونزع ههنا : كف وانتهى . (١٠) الذي منعوه . حذف العائد . (١١) الشيعة : الناصر . تقع على المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث واحد .

وإذا لم يمدّ الفخرُ مدحَ حسان بمائه ورونقه جاءت أماديحه جافةً ضعيفة، تُوصَف فيها الصفات الحسنة وصفاً، ثم تُجمع في كلام موزون مقفًى دون أن يُجعل لها ما ينوّرها ويُسيغها في الأذواق؛ أو يصوّرها ويلوّنها ويذهب عن حواشيها الدُّكنة والظلال. مثال هذا المدح الضعيف ما نقدّه من قوله في أبي بكر. وهناك أمثلة أخرى ترينا فضلَ الصورة في حسن التعبير؛ منها أن حسان لم يوفق في مدح الرسول حين قال:

واللهِ ربي، لا نُفارق ماجداً   عَفَّ الخليقة ماجدَ الأجداد(١)

لكنه وفق في قول فيه:

له رَتَبٌ عالٍ على الناس كلّهم   تقاصرُ عنه سَوْرة المتطاول(٢)

ولم يأت بالمعجب حين قال مدح عائشة:

مهذَّبةٌ قد طيَّب الله خِيمَها   وطهَّرها من كل سوء وباطلِ(٣)

ولكنه أحسن في قوله:

حصانٌ رَزانٌ ما تُزَنّ بريبة   وتُصبح غَرْثى من لحوم الغوافل(٤)

ولا بد لقارىء مدح حسان من التساؤل عن سبب قلة مدائحه في الرسول إذ لم يرد في ديوانه المطبوع في أربعمائة وثلاثين صفحة متوسطة الكبر إلا خمسة وأربعون بيتاً في مدح النبي الكريم، يشاركه في عشرين منها الأنصار والمهاجرون. أفمرَض في نفسه التقصير أم كان الرسول لا يحبّ هذا الضرب من الشعر ولا يشجع عليه؟ وإذا صح ما رواه صاحب جمهرة أشعار العرب أن النبي ﷺ، لما بلغه أن قوماً نالوا من أبي بكر، صعد المنبر وامتدحه

[١] العفّ: العفيف. [٢] الرَّتب: المكان المرتفع. والسورة: الوثبة. والمتطاول: المتكبر الذي يريد أن يعلو على الناس. [٣] الخيم: الطبع والسجية. [٤] الحصان: العفيفة. والرزان: المرأة الوافرة الوقار. وتُزَنّ: تُظن. وغرثى: جائعة. والغوافل جمع غافلة وهي المرأة البريئة الشريفة لا تفكر في شر.

وقال لحسان : هاتِ ما قلتَ فيّ وفي أبي بكر ؛ فأنشد حسان الأبيات التي تقدمت في مدح الصدّيق ؛ نقول لو صحت هذه الرواية التي تُري أن الرسول كان يرضى ، في بعض المناسبات ، بالمدح ، للدعوة للإسلام ورجالاته فماذا يكون عذر حسان ؟

وإذا ذهبنا مذهب القائلين إن الضعيف المتهافت[1] من شعره في السيد الأمين مدسوس دخيل أوقفنا أبا الحسام في عجز جديد ؛ إذ ما الذي يبقى من الخمسة والأربعين بيتاً التي قيلت في مدح النبي إن هي خضعت للنقد والتشذيب ؟

لا شك أن المدح لم يكن من طبع حسان ، وإن راض نفسه عليه وكانت له فيه لاميته الجاهلية وعينيته المحمدية الدمّاغتان البتارتان . ولعل هذا الأمر من أظهر ما دعا لتقصيره في مدح الرسول عليه السلام .

ولعلَ هناك داعياً آخر ليس مصدره الشاعر بل نفس القارئ المفتونة بشمائل النبي الطاهرة ، المجلة لنفسه الكبيرة وأعماله الخارقة المقرّة بفضله العميم التي لا ترضى ، في مدحه ، بالقليل ، ولا تقنع ، في وصفه ، بالنعوت التي تصح في غيره من العالمين . فهي أبداً متطلبة للمزيد ، لا ترى مدحاً مستطيعاً أن يسمو السمو المطلوب ، وأن يفيه حقه من الثناء والتمجيد . وكأن هذه الحالة النفسية هي التي تجعل القارئ لا يستجيد أيضاً أقوالَ الشعراء الذي مدحوا الرسول ، في ذاك الزمن ، أمثال كعب بن زهير والأعشى وابن الزِبَعرى[2] .

وفي الواقع ، لو جعلنا مدائح حسان للنبي مقولة في عربيّ أو سيد قبيلة لا نعرفه ولا نملك عنه سابق فكرة لشعرنا ، من ساعتنا ، أنها صارت أرضى وقعاً وأشهر أمراً[3] .

---

[١] المتهافت : المتساقط .   [٢] انظر الديوان ص ٣٦٠ـ ٣٦١ .   [٣] المدح في الديوان في الصفحات : ٨ ، ١٠ ، ٧٨ ـ ٧٩ ، ٨٠ ـ ٨١ ، ٨١ ـ ٨٢ ، ١٠١ ، ١٥٣ ، ٢٤٨ ، ٢٩٨ ـ ٣٠٠ ، ٣٠٧ ـ ٣١٠ ، ٣٢٤ ـ ٣٢٥ ، ٣٣٨ ـ ٣٤٠ ، ٣٥٩ ، ٣٩١ ـ ٣٩٢ ، وأكثره أبيات أو مقطعات .

الرثاء

الرثاء مدح مشرّب بالحزن ، مكفن بالحسرات ، مغسّل بالدمع السخين • والشاعر الذي لا يتقن المدح لا يجيد الرثاء • وحسان ، على كثرة مراثيه بالإضافة إلى مدائحه ، ليس له قول في التفجع مشهور اللهم إلا أبيات متفرقة لا يكاد يتراءى فيها لهب الحسرة وتكسر الحزن وصدق العاطفة حتى ينقطع النفس وتخبو روعة الكلام :

قال يرثي الرسول :

١ – تالله ما حملت أنثى ولا وضعت مثل الرسول نبيِّ الأمة الهادي
ولا برا الله خلقاً من بريته أوفى بذمة جارٍ أو بميعادِ [1]
مَنِ الذي كان فينا يستضاء به مباركَ الأمر ذا عدلٍ وإرشاد [2]
٢ – يا أفضل الناس ! إني كنتُ في نَهَر أصبحت منه كمثل المفرد الصادي [3]
أمسى نساؤك عطّلن البيوت فما يضربن فوق قفا سترٍ بأوتاد [4]

أو تأتي صورة دخيلة نافرة فتذهب الرغبة في البكاء ، وتُفسد رهبة التصوير ، أو توشك أن تقلب الرثاء إلى شماتة وهجاء •

قال يرثي الرسول أيضاً :

١ – لقد غَيَّبوا حِلماً وعلماً ورحمةً عشيةَ (عَلَّوْهُ الثرى لا يُوسَّد)
٢ – فليتنا يومَ وارَوْهُ بمُلحَدِه وغيَّبوه (وألقوا فوقه المدَرا) [5]
لم يترك الله منا بعدَه أحداً ولم يَعِشْ بعدَه أنثى ولا ذكرا

---

[١] برأ : خلق • [٢] الديوان ص ٩٩ • [٣] الصادي : العطشان •

[٤] لعله يقول : لم يعدن يحتجن للستر الذي يوضع للنساء في البيوت لانقطاع الزائرين والقاصدين والأبيات في الديوان ص ١٠٠ • [٥] الملحد : القبر • والمدَر : الطين •

وأكثر مراثي حسان في الرسول وعثمان وأهل مؤتة[1] وخُبيب بن عدي[2] وحمزة عم النبيّ .

أما رثاؤه للرسول فقد كان قوي العاطفة عميق الألم حاطم الأسى ؛ لكنه كان سيء العرضِ ، أصمّ الجرس ، قلق التركيب ، يفسده النفس المنقطع والصور الدخيلات النابيات :

بطَيْبةَ رسمٌ للرسول ومعهد ... منير ، وقد تعفو الرسومَ وتهمَدُ[3]
ولا تنمحي الآيات من دار حرمةٍ ... بها منبر الهادي (الذي كان يصعَدُ)
بها حُجُرات كان ينزل وسْطها ... مِنَ اللهِ نورٌ يُستضاء ويوقَدُ
عرفت بها رسمَ الرسول وعهدهَ ... وقبراً به (واراه في التُرب مُلحَدُ)
ظللتُ بها أبكي الرسول فأسعدت ... عيون ومثلاها من الجفن تُسعد[4]
مفجّعةً قد شفَّها فقدُ أحمدٍ ... فظلَّت لآلاء الرسول تعدد[5]
فبوركتَ ياقبر الرسول وبوركت ... بلاد ثوى فيها الرشيد المسدَّد[6]
لقد غَيّبوا حِلماً وعلماً ورحمةً ... عشيةَ (عِلَّوهُ الثرى لا يوسَّدُ)[7]

---

[١] جهز الرسول عليه الصلاة والسلام في السنة الثامنة للهجرة جيشاً ليقتصّ ممن قتلوا رسوله إلى أمير بُصري وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال لهم : إن أصيب فأميركم جعفر بن أبي طالب فإن أصيب فعبد الله بن رَوَاحة . وكان الجيش ثلاثة آلاف . فوجد الروم في مؤتة وقاتله فقتل زيد وجعفر وعبد الله ؛ فأمروا خالد بن الوليد فناوش الأعداء سبعة أيام ثم تحاجز الفريقان ونجى خالد جيش المسلمين . [٢] أسر يوم الرجيع وصلبه الكفار . [٣] طيبة : يثرب . وعفا الرسم : بلي وذهب أثره . [٤] أسعدت : أعانت وأمدّت . [٥] شفها : أحزنها وهزلها . والآلاء : النعم . [٦] ثوى : حلّ . [٧] الثرى: التراب . أخذ الكميت معنى البيتين فقال يرثي الرسول :

فبورك قبر أنت فيه وبوركت ... به وله أهلٌ بذلك يثربُ
لقد غيبوا براً وحزناً ونائلاً ... عشيةَ واراه الصفيح المنصبُ

« البيان والتبيين ج ٢ ص ١٨٩» .

وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم وقد وهنت منهم ظهورٌ وأعضدُ (١)
وهل عدلت يوماً رزيةُ هالكٍ رزيّةَ يومٍ مات فيه محمّدُ ؟ (٢)
فبكّي رسولَ الله (يا عينُ) عَبرةً ! ولا أعرفنكِ الدهرَ دمعك يجمَدُ (٣)
وجودي عليه بالدموع وأعولي لفقد الذي لا مثله الدهرَ يوجَدُ (٤)

* * *

كنتَ السواد لناظري فعمي عليك الناظر
من شاء بعدَك فليمت فعليك كنتُ أحاذر (٥)

وأما رثاؤه لعثمان فقد كان يشوبه هجاء القاتلين وتهديدُهم والتحريض عليهم

من سرّه الموت صرفاً لا مزاج له فليأتِ مأسدةً في دار عثمانا (٦)
بل ليت شعري (وليت الطير تخبرني) ما كان شأن عليٍّ وابن عفانا
ضحّوا بأشمط عنوان السجود به يقطّع الليل تسبيحاً وقرآنا (٦)
لتسمعنّ وشيكاً في ديارهمُ اللهُ أكبرُ ، يا ثاراتِ عثمانا (٧)
شُدُّوا السيوف (بثِنْي في مناطقكم) حتى يحين بها في الموت من حانا (٨)
لعلكم أن تروا يوماً بمَغبطةٍ خليفة الله فيكم كالذي كانا (٩)

[١] وهنت : ضعفت . والعضد : الذراع من المرفق إلى الكتف جمعه أعضد .
[٢] الرزية : المصيبة . [٣] جمد الدمع : انقطع عن الجري . [٤] أعول : رفع صوته بالبكاء . والقصيدة في الديوان ص ٨٩ — ٩٥ . [٥] أخذ المعنى أبو نواس فقال في رثاء الأمين :

وكنتُ عليه أحذر الموت وحده فلم يبق لي شيء عليه أحاذر

« زهر الآداب ج ٢ ص ٢١٤ » . [٦] الأشمط : الذي خالط سواد شعره بياض .
[٧] وشيكاً : قريباً سريعاً . [٨] المناطق جمع منطق وهو ما ينتطق به . يحين : يهلك
[٩] المغبطة : الغبطة والسرور . يقول : حتى تموتوا وتلقوه في الجنة كما كان ؛ أو لعله يقول : حتى يأتيكم خليفة كعثمان في التقوى . والأبيات في الديوان ص ٤٠٩ .

الفهرس

الصفحة	
٣	سيرته
١٢	شعره
١٣	أقوال النقدة في شعره
١٦	دراسة شعر حسان
١٦	الغزل
٢١	نعت الخمر
٢٣	الوصف
٣٠	الفخر
٣٦	الهجاء
٤٠	المديح
٤٦	الرثاء
٥٠	أسلوب
٥٣	
٤	